من تراث الأدب العُماني

شعر أبي مُسْلِم البَهْلانِي
في ميزان النقد

دكتور/ علي محمد علي إسماعيل ندا
أستاذ الأدب والنقد المساعد
جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمي وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد...

فلقد افتقرت المكتبة العربية إلى دراسات أدبية تُسْهم في التعرف على معالم الأدب العربي في عُمَان، واتجاهاته وخصائصه الفنية على امتداد الحقب والأزمان، على الرغم مما يحمله من أصالة وعمق ؛ وما يتسم به من خصائص فنية جادة.

فالأدب العُمَاني . عامة . والشعر . خاصة . ما يزال . في مُجمله . حبيس المخطوطات، ولم يحظ بنصيبٍ وَافرٍ من الدراسات الأكاديمية، لعوامل مختلفة، تضافرت على فرض هذه العُزْلة عليه ؛ ليس هنا مجال استعراضها والكشف عنها.

لذلك فالولوج إلى العوامل الفنية للشعر العماني عملية شاقة عسيرة، لما فيه من غموض كثيف، ناتج عن قلة الدراسات، وضآلة الأبحاث، مما يشير إلى محدودية المادة المعرفية عن هذا الأدب.

من هذا المنطلق ارتأيت أن أسهم في الكشف عن هذا الأدب، وعن بعض عوامله الفنية من خلال دراسة شاعر من شعراء عمان المبرّزين، وهو (ناصر بن سالم بن عُدَيِّم الرَّوَاحِي) ؛ وهو شاعر أتاه الله عز وجل موهبة من لَدُنه ملَّكته نواصي البيان ؛ ومع تنوع مجالاته الشعرية التي كان في كل منها الفارس المُجلِّي.

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الشاعر . مثل غيره من الشعراء الأفذاذ في عمان . لم يُطرق شعره من قِبَل الدارسين الأكاديميين، ولم يُعرف على الساحة الأدبية ؛ وظل مجهولاً حتى عند كثيرٍ من العُمَانيين أنفسهم ؛ مع إنه يُعدُّ من

الشعراء الإسلاميين في رؤاه ومواقفه، وفي أدواته الفنية ؛ ولا يَقِلُّ مرتبة عن فحول عصره أمثال شوقي، وحافظ، ومطران ؛...وغيرهم.

ولما كانت دراسة كل أديب على حِدَة دراسة شاملة ؛ مرحلة يجب أن تسبق مرحلة رصد الخصائص الغالبة، والصفات العامة في أدب أُمة ما ؛ كي لا تقتصر الدراسة على فئة من الأدباء دون فئة ؛ وحتى تكون الدراسة التي تُعنى برصد الظواهر العامة أكثر دقة، وأصح إحكامًا، وأكثر شمولاً.

لذلك ارتأيت أن أسهم بهذه الدراسة في الكشف عن سمات الشاعر الأدبية، وعن خصائصه الموضوعية والفنية ؛ لتكون لبنة تؤدي دورها في الكشف عن سمات الأدب العربي في عُمان وخصائصه ٠

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب ٠

تمهيد

حول حياة الشاعر ونشأته

النسب والكنية:-

هو العلامة الفقيه،والشاعر الأديب : ناصر بن عُدَيِّم بن صالح بن محمد ابن عبد الله بن محمد البهلاني الرَّوَاحِي ؛ العُمَاني، المُكَنَّى (أبو مسلم) ٠

وربما يتبادر إلى ذهن القارئ، أن (البهلاني) نسبة إلى (بهلا) المدينة التاريخية المشهورة في عُمان ؛ وليس الأمر كذلك ؛ لأن النسبة إلى (بهلا) (بهلوي)، ولا تحتاج إلى زيادة حرف النون ؛ ولأنه من بطن من منطقة يمنية تسمى (إزكي) . كما يقرر سماحة الشيخ أحمد الخليلي مفتي عام السلطنة؛ وهو يَمُتُّ إليهم بنسب . ومنها تَفَرَّقوا إلى أمكنة أخرى من عُمان، ومنها قرية (محرم) بوادي محرم، التي ينتمي إليها شاعرنا(١).

حياته :-

أطل أبو مسلم على هذا الوجود سنة (١٢٧٣هـ . ١٨٥٤م) حسب رواية ابن أخيه (سالم بن سليمان البَهْلاني) ٠

وأبو مسلم شاعر ينتمي إلى أصول كريمة تعود إلى قبيلة عبس المشهورة ؛ وتعتبر في عمان إحدى القبائل الكبرى ٠ لذلك لم يكن غريبا أن ينشأ الشاعر نشأة كريمة في كنف عائلة معروفة بالعلم والصلاح ؛ فقد كان جدُّه الرابع (عبد الله بن محمد البهلاني) قَاضِيًا في وادي محرم أيام دولة اليعاربة. وكان توليه القضاء آنذاك دلالة على النضج العلمي والاستقامة الخُلقيَّة ؛ إذ لا يُقبل فيه إلاَّ مَنْ أهَّلَته مواهبه الخاصة والعامة لهذا المنصب.

كما كان والده قاضيا للإمام (عَزَّان بن قيس)، و السلطان (تُرْكِي ابن سعيد) ٠

(١) قراءات في فكر البهلاني الرواحي : ص ٤٢ . ط - وزارة التراث القومي والثقافة - المنتدى الأدبي . ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

النَّشْـــأة :ـ

نشأ أبو مسلم في وادي محرم . كما أشرنا . وهو يبعد عن العاصمة مسقط حوالي (مائة وخمسين) كيلو مترًا تقريبًا ؛ ويشتمل هذا الوادي على العديد من القرى، أكبرها قرية (محرم) ؛ وهي القرية التي فتح فيهـا شاعرنا عينيه على هذا الوجود ؛ وهناك نشأ وترعرع... وتركت حياة الطفولة، وبعدها حياة الشباب ثم المشيب في وادي (محرم) صوَرًا لازمته طوال حياته، وظلت تداعب خياله وتسكن ذاكرته، عبَّر عنها بقوله(١) :-

يابرق هل والحنايا من (ضعاضع) قاد ... التام (فالطف) حياهن هتَّـــانُ

وهل ذرى القفص (فالمقراة) معشبة ... وهل (قُطن) بعليا (قاعر) بانوا

عهدي بها ونضير العيش يصحبها ... والدهر في غفلة والشُّهب أخوانُ

نشأت فيها وروضاتي ومرتبعي ... روح الفضيلة لا رند وريحـانُ

أرتاح فيها إلى (خِلٍّ) فيُبهرني ... صدقٌ وقصدٌ ومعروفٌ وعرفانُ

وقد أخذ علمه عن عدد من المشايخ ؛ أوَّلهم والده (سالم بن عُدَيمٍ) الذي كان يعمل قَاضيًا على نزوى في عهد الإمام (عزَّان بن قيس)؛ ثم انتقل إلى بلدة (السِّيح) حيث جلس إلى الشيخ (محمد بن سُلَيِّم الرواحي)، وكانت دراسته لا تختلف عن زملائه حيث يكون التركيز على المواد الشرعية واللغوية، وعلى رأسها حفظ القرآن الكريم الذي تبدو آثاره ظاهرة في شخصية أبي مسلم علمًا وأدبًا. وقد لازمه في ذلك الشيخ (أحمد بن سعيد الخليلي)، وكانت البيئة العامة والخاصة مساعدين على نبوغ أبي مسلم في العلوم الشرعية واللغوية والأدبية ؛ وبات الشعر من أهم الفنون الأدبية التي اهتم الشاعر بها وظهرت قدرته العالية فيه. حيث بدأ لقاؤه مع

(١) لمزيد من الإيضاح : راجع : قراءات في فكر أبي مسلم . ص ٤٠ وما بعدها . وديوان أبي مسلـم : شاعر زمانه ، وفريد أوانه . ص ٣٠٠ . حققه ودققه / عبد الرحمن الخزندار . عُني بطبعه ونشره / صالح بن عيسى الحارثـــي . ط : دار المختار . سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

قرضه منذ الخامسة عشرة من عمره. وكان من زملائه في الدراسة الشيخ العلامة (أحمد بن سعيد بن خلفان الخليلي) الذي عناه بقوله[1]:-

أرتاح فيها إلى (خِلٍّ) فيبُهرني صدقٌ، وقصدٌ،ومعروفٌ، وعرفانُ

الهجرة إلي زنجبـــار :-

رحل والده الشيخ (سالم بن عُدَيمٍ) إلى زنجبار التي وُصِفت بأنها دُرَّة الشرق الأفريقي، والتي كانت زاهية بالحكم الإسلامي العُماني في عهد السلطان (بِرْغِش بن سعيد بن سلطان) ؛ الذي قلَّده منصب القضـاء الشرعي[2].

وتجدر الإشارة إلى أن العمانيين وجدوا في أحضان هذا السلطان الدفء والرعاية والحدب والعناية ؛ وكان هذا السلطان يتطلع إلى الاستفادة من الخبرات العمانية في كل المجالات[3].

ثم لحق أبو مسلم بأبيه في زنجبار في سنة ١٢٩٥هـ، وكان دون العشرين من عمره، وبقي بها خمس سنوات ؛ ثم عاد إلى عُمان سنـة ١٣٠٠هـ، غير أن إقامته بها لم تطل، فما لبث أن حنَّ إلى زنجبار مرة أخرى، لمَّا وجد بها من اهتمام حكامها ؛ الذين أحاطوه بالرعاية التامة ؛ وأولوه العناية الكاملة، لاسيما في عهدي السلطانين : (حمد بن ثويني) و (حمود بن محمد بن سعيد)، ومن بعدهما، من سلاطين زنجبار ؛ حيث تقلَّد منصب القضاء ؛ ثم أُسندت إليه رئاسته فيها، وذلك بعد أكبَّ على تكوين شخصيته العلمية والعملية ؛ واستهوته فيما استهوته كتب الفقه والأدب ؛ وما لبث أن بزغ نجمه واشتهر أمره قاضيًا نبيهًا، وَعَالِمًا فَقِيهًا، وأديبًا لامعًا.

(ثم استقال من خدمة الشَّرع وصرف همَّته إلى التأليف، وإحياء آثار السلف الصالح، وإنشاد الأذكار ؛ بعد أن عيَّنت له الحكومة مقدارًا من الماليَّة يأخذه في كلِّ

(١) راجع : مقدمة الديوان : ص ١٩ .
(٢) لمزيد من الإيضاح : راجع : مدخل إلى دراسة الأدب العماني . د / أحمد درويش . ص ١٥٢ . دار الأسرة . سنة ١٩٩٢م .
(٣) مقدمة الديوان . ص ١٩ .

شهر مكافأة له على ما انتدب إليه سابقًا من خدمة الشَّرع الشَّريف، وكان إليه المرجع في مهمَّات الدعاوى وعظائم الأمور)([1]).

ثقافتـــــه :ـ

لقد كانت للبيئة التي عاشها أبو مسلم في ربوع زنجبار الوادعة، وذلك المناخ الذي ساده التقدير والاحترام من قِبَل سلاطين زنجبار، أثر فعَّال في نفس الشيخ أبي مسلم، فأكب على المطالعة وقراءة نفائس الكتب الفقهية والأدبية على اختلاف أنواعها ؛ فكان الكتاب أستاذه وجليسه المفضل، حتى نبغ في العربية والشعر والأدب والعلوم الشرعية، وصارت له مكانة رفيعة ومنزلة عالية في زنجبار لدى الحكام والمحكومين، اعترافًا بعلمه وشاعريته حتى أُطلق عليه لقب (شاعر العرب) و (شاعر العصر).. وعبَّر هو عن تلك المكانة الأدبية الرفيعة بقوله([2]) :-

عِزَّة العلم أمجدتني مقامًا فتبيَّنتُ كل رأي سخيف

ويبدو أن شهرة الشاعر الفقهية ذاعت في العالم الإسلامي كله ؛ إذ كانت له علاقات بأعلام الإصلاح في عصره مثل الشيخ : (السالمي ؛ وسليمان البارودي باشا ؛ ومحمد بن يوسف أطفيش الجزائري) ؛ واطلاعه الواسع على مجريات الأحداث الإسلامية من حوله ؛ وكانت له مساهماته البنَّاءة في ميدان الأدب والشريعة، بشهادة كل من قرأ ديوانه، أو اطلع على (نثار الجوهر) ؛ ولا أحسب أن عالمًا يستطيع أن يتولَّى رئاسة القضاء في زنجبار إلا إذا كان على هذا النحو من التبحُّر في العلم والعبقرية العقلية. وفي هذا الصدد يقول الشيخ : سالم بن حمود البِطاشي: (... وفي زنجبار من رجال العلم الذين هم أشهر من نار على علم منا ومن غيرنا، كانوا تحت علمه الخفَّاق بأصول الدين، وأصول الفقه، وقواعد السُّنَّة النبويَّة، فإن ذلك يشهد له به تآليفه ...وقد أخبرني جملة من أهل العلم الذين عاشوا في زنجبار عن أحوال هذا الشيخ الذي تخلد له حسن الأحدوثة في أمته وفي وطنه وفي مِلَّتِه، فإنه قام بواجبات عديدة، وأحرز قصب السبق في ميادين النضال العلمي؛ فكان ولا

---

(١) مقدمة الديوان . ص ١٩ .
(٢) الديوان . ص ٤٤٩ .

يزال في الرعيل الأول بين أترابه، وكانت له نوادر أدبية حيَّرت عقول الكثير من أترابه ومعاصريه...)(١).

وقد أخذ أبو مسلم العلم عن شيوخ له ؛ فقد حفظ القرآن الكريم وتعلم علومه على يد شيخ قريته (محرم).

أما علوم اللغة العربية، والشريعة الإسلامية ؛ فقد أخذ شيئًا منها عن والده الشيخ / سالم بن عُدَيِّم، القاضي المسئول عن إقامة ميزان العدل بين الناس في بلد كبير، الفقيه بأمور الحلال والحرام،المفتي فيما يُعرض عليه من كبار المسائل التي تواجه الدولة حاكما ومحكومين.

ومن أبرز من تأثر بهم وسار على هُداه في مواطنه : سعيد بن خلفان الخليلي الخروصي ؛ حيث قرأ أشعاره، وتأثر بمنظوماته في الفقه واللغة .

كما تلقى العلم عن الشيخ / محمد بن سالم الرواحي، الذي كان يقوم بالتدريس في المسجد الموجود بقرية السِّيح بوادي محرم.

وفي زنجبار نضجت مداركه، وتفتحت مواهبه، وذاعت شهرته الفقهية والأدبية، وبات له تلاميذ يأخذون عنه العلم، لغةً، وفِقْهًا،وَعَقِيدَةً، وأدَبًا. وكان من أبرزهم :-

الشيخ / سالم بن محمد الرواحي ؛ والشيخ /عبد الرحمن بن محمد الرَّوَاحِي ؛ والشيخ / سالم بن سعيد الحبيشي ؛ والشيخ / برهان بن مكلا القمري ؛ والشيخ / سالم بن سليمان البهلاني (ابن أخيه) ؛ والشيخ/مهنا ابن ناصر بن سالم البهلاني (ولده)(٢).

ومن منطلق نبوغه في الأدب واهتمامه به (قام بتأسيس جريدة النجاح في زنجبار، التي عُنيت بخدمة الأدب العربي، والقضايا الإسلامية، والأحداث الدولية، وكان هو رئيس تحريرها لفترة غير قصيرة من الزمن..)(٣).

---

(١) مقدمة نثار الجوهر . ص ٥ . نشر وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عُمان . سنة ١٩٨٠م .
(٢) لمزيد من الإيضاح : راجع / قراءات في فكر أبي مسلم : ص ٤٥ .
(٣) لمزيد من التفاصيل : راجع / مقدمة نثار الجوهر . ص ١١ .

وهكذا ظلَّ بين وظيفة القضاء عاملاً ؛ ومطوَّلاته الفقهية مجتهدًا، وأمهات كتب الأدب والشعر أديبًا لامعًا، وجريدة النجاح صحفيًا ناجحًا، وبين بعض طلابه الذين يتلقون عنه مُربيًا حانيًا.

على أنه كان ينتمي إلى الجيل التالي مباشرة للشيخ / خليل اليازجي (ت ١٨٨٩م)، وعبد الله النديم (ت ١٨٩٦م)، ونجيب الحداد (ت ١٨٨٩م)، وعائشة التيمورية (ت ١٩٠٢)، ومحمود سامي البارودي (ت ١٩٠٤)، وخليل الخوري (ت ١٩٠٧)، وحسين الطرابلسي (ت ١٩٠٩). وسائر جيلهم من شعراء العربية.

كما أنه يُعَدُّ معاصرًا لإسماعيل صبري (ت ١٩٢٣م)، ومحمد عبد المطلب (ت ١٩٣١م)، وأحمد شوقي (ت ١٩٣٢م)، حافظ إبراهيم (ت ١٩٢٣م)، وجميل صدقي الزهاوي (ت ١٩٣٦م)، ومعروف الرصافي (ت ١٩٤٥م) ؛ وغيرهم من صفوة شعراء النهضة الأدبية المعاصرة(١). الذين تَشكَّل من إبداعهم ذلك الاتجاه الجديد الذي يحرص على وصل حاضر الشعر العربي بماضيه في عصور تألقه ونهضته حتى يخرج من ضعفه وهُزاله اللذين أصاباه خلال العصر التركي، حيث كان الشعر العربي يعاني أزمة الضعف والانحلال منذ انتقال الخلافة الإسلامية إلى العثمانيين(٢).

وهذا الاتجاه هو الذي يُعد البارودي رائده ؛ إذ اتجه بأسلوب الشعر إلى الأسلوب القديم المشرق الحي البعيد عن التهافت والتستر بالمحسنات(٣).

مؤلفاته :-

من مؤلفات أبي مسلم التي عُرفت حتى الآن :-

١. كتاب السؤالات.

(١) راجع : تاريخ آداب اللغة العربية / جورجي زيدان . ج٤ص٢١٠ وما بعدها . طبعة دار الهلال ؛ والآداب العربية في القرن التاسع عشر / لويس شايخو . ١٢/٢ وما بعدها . بيروت سنة ١٩٢٤م.

(٢) لمزيد من التفاصيل: راجع : محمود سامي البارودي : د/ علي الحديدي . ص٥٠ . أعلام العرب. الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) راجع : تطور الأدب الحديث في مصر : د/ أحمد هيكل . ص٦١ . ط : دار المعارف بمصر .

٢ـ العقيدة الوهبية ؛ وهو كتاب في التوحيد في أسلوب حواري بين أستاذ وتلميذه.

٣ـ نثار الجوهر في علم الشرع الأزهر،وهو في أصول الشريعة الإسلامية، ويتكون من أربعة مجلدات، وهو يحمل طابع الفقه الموسوعي العام، وينتهي عند باب الصوم. وقد حالت المنية دون إكماله.

٤. ديوان شعر ضخم يتضمن ما يزيد على تسعة آلاف بيت.

نهاية الرحلة :ـ

انتهت رحلة أبي مسلم مع الحياة، ووافته المنية في اليوم الثاني من شهر صفر سنة ١٣٣٩هـ ـ ١٩١٩م... عن عمر يقارب ثلاثًا وستين سنة قضاها مجتهدًا في العمل في سبيل العلم، والعقيدة الإسلامية ؛ والدفاع عن الأمة ؛. ودُفِن في زنجبار التي بها قبره إلى اليوم.

*** * * * * * * * * * * ***

الفصل الأول

موضوعات شعره

من أهم المقاييس التي يعتمدها الدارسون في معرفة الأديب الناجح من غيره ما يميز أدبه من سمات تفرده عن غيره، وتغدو طابعًا خاصًا به ؛ لأن المشتركات لا يُعتمد عليها في التقويم والتمييز !.

فالإبداع الأدبي الجيد هو الذي تبرز فيه شخصية الأديب واضحة جلية، رؤيةً، وتَعْبِيرًا، وَتَصْويرًا ؛ وهذا هو المقياس الذي يدل على قوة شخصية الأديب وعبقريته، ومدى قدرته على السيطرة على أدواته الفنية.

وغَنيٌّ عن البيان أن الموضوعات الشعرية مشتركة بين الشعراء على اختلاف بيئاتهم ؛ ولكن الذي يتميز به شاعر عن آخر هو ما يتناوله الشاعر من واقع بيئته الاجتماعية والنفسية والوجدانية..إلخ ...

وقارئ ديوان أبي مسلم الرَّوَاحي، يدرك أن هذه الميزة تتجلَّى بكل الصفاء والنقاء في شعره ؛ حيث تتصف كلماته بالأصالة والقوة المتمخضة عن التوافق التام بين شخصيته وإبداعه. حيث يدل شعره على أننا نقف أمام أديب عربي إسلامي بحق ؛ يتجلى الإسلام في شعره بأحاسيس إسلامية صادقة، ومشاعر دينية نبيلة ؛ وتتجلى عربيته في لغته، وتعبيره المستوحى من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والتراث العربي الزاهر.

ويدرك أننا أمام شاعر طرق أبرز الموضوعات الشعرية عند العرب، لاسيما التي تتواءم مع بيئته الداخلية والخارجية.

من هنا فإن المنهج الصائب في رأينا هو أن نقف وقفة تحليلية أمام الاتجاهات الموضوعية التي تحتويها قصائده ؛ لنتعرف على شخصيته الإبداعية، والمقومات الأساسية لأدواته الفنية.

****** **** ******

أولاً : الابتهال والدعاء.

توطئـــة :ـ

أوردت كتب اللغة أن الابتهال هو : الاجتهاد في الدعاء، وإخلاصه لله عز وجل. التَّبَهُل : العناء بالطلب. البَهْل : اللَّعْن. بَهَلَهُ الله بَهْلاً : لَعَنَهُ. وعليه بَهْلة الله وَبُهْلَته : أي لَعْنَتَهُ. بَاهَلَ القَوْمُ بَعْضُهم بَعْضًا وَتَبَاهَلُوا وَابْتَهَلوا : تَلاعَنُوا. المُبَاهَلَة : المُلاعَنَة. وَمَعْنَى المُبَاهَلَة : أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا.

وابتهل في الدعاء : إذا اجتهد.وقام مبتهلاً : أي مجتهدًا في الدعاء. والابتهال : التضرع(١). وفي التنزيل العزيز : ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾(٢).

لذا فإن معنى الابتهال: التضرع في الدعاء والاجتهاد فيه على الكاذبين والظالمين والكافرين... وما إلى ذلك...

أما الدعاء فقد أوردته كتب اللغة بمعنى : الاستغاثة، والرجاء، والسؤال.

ومعنى الدعاء على ثلاثة أوجه : -

الوجه الأول : توحيد الله والثناء عليه. كقولك : يا الله لا إله إلا أنت. وقولك ربنا لك الحمد. فقد دعوته بقولك (ربنا)، ثم أتيت بالثناء والتوحيد.

الوجه الثاني : مسألة الله والعفو والرحمة،وما يُقَرِّب منه، كقولك: اللهم اغفر لنا.

الوجه الثالث : مسألة الحظ من الدنيا.كقولك : اللهم ارزقني مالاً وولدًا. إنَّمَا يُسَمَّى هذا جميعه دعاء، لأن الإنسان يصدر في هذه الأشياء بقوله : يا الله، يا رب، يا رحمن. فلذلك سمي دعاء.

---

(١) راجع : لسان العرب / لابن منظور ؛ والمصباح المنير / للفيومي ؛ والمعجم الوسيط / لجنة من مجمع اللغة العربية . مادة (بهل) .
(٢) آل عمران : ٦١ .

وإنما سُمِّيَ التهليل والتحميد والتمجيد دُعَاءً، لأنه بمنزلة في استيجاب ثواب الله وجزائه. كالحديث الآخر : إذا شَغَل عبدي ثناؤه عليَّ عَن مَسْأَلَتِي أعطيته أفضل مما أُعْطِي السَّائلين(١).

وقد جاء الدعاء في القرآن الكريم بمعنى العبادة ؛ كما في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾(٢).

فالقرآن الكريم يُوصي عباد الله المؤمنين بالدعاء، لأنه يحفظ الصلة بين العبد وربه، ويجعلها متواصلة لا تنقطع.

وقد جاءت هذه اللفظة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم بالمعنى نفسه، كما في قوله تعالى﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾(٣). وفي قوله تعالى : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾ (٤).

وقد حَثَّ الرسول الكريم ﷺ على الدعاء في حالتي الخير والضُر، لأن الدعاء بالنسبة للمؤمنين هو برهان خضوعهم لله. من ذلك قوله ﷺ : (اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)(٥). وقوله :(اللَّهُمَّ انْفِعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا. الحَمدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأعوذُ بِكَ مِنْ حَالِ أهْلِ النَّارِ.)(٦). فالدُّعَاءُ بالشكر عند النعماء يزيده عطاءً

(١) راجع : لسان العرب ؛ والمصباح المنير ؛ والعجم الوسيط . مادة (دعا) .
(٢) البقـــرة : ١٨٦.
(٣) الأعراف : ١٨٠ .
(٤) الرعـــد : ١٤ .
(٥) البخاري : الدعوات. حديث رقم: ٥٩٦٠ ؛ وصحيح مسلم : الإيمان : حديث رقم : ١٣١ .
(٦) سنن الترمذي : الدعوات . حديث رقم :٣٥٢٣ ؛ مسند أحمد : مسند البصريين . حديث رقـــــم : ١٩٦٩٢ .

وإنعَامًا، والدعاء بالصبر عند الضراء يزيده أجرًا وَثَوَابًا، وعند الإنابة والاستغفار يزيده من الله قُـرْبًا وَمَلاذًا.

والمتأمل في ديوان أبي مسلم يجده تردد بين الابتهال والدعاء كوسيلة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ؛ ورتبة في السمو الروحي الذي يصفي النفس من أدران المادة وشرور الدنيا ؛ وفي الوقت ذاته كانت سلاحه ضد الطغاة والمستبدين ونصيره عليهم . على ما سيأتي بالتفصيل إن شاء الله تعالى .

ولعل إحساس الشاعر بأنه يدعو الله، ويرفع أكُفَّ الضراعة وهو ينشد تلك القصائد، هو الذي يُضفي على أشعاره جَوًّا حَمِيمًا من الصدق والتجلي الروحي ؛ فهو يدعو خاشعًا مُتَبَتِلاً في محراب الشعر، في مواقف عديدة طالما طالعتنا في شعره، خاصة في خواتم تلك المطولات التي خَصَّصَهَا لأسماء الله الحسنى. وفيها يتكرر لفظ الدعاء من الشاعر تعبيرًا عن معاناته النفسية الصادقة، وتصويرًا للخلوة الروحية الفياضة.

حيث يقول في الخاتمة الأولى(١) :-

إلهي هذا موقف الخَوْف والرجا	وهذا مقامُ العائذ المتثبتِ
إلهي ما أوقفتني موقف الدُّعا	لِطَرْدٍ وَإبْلاسٍ وَيَأْسٍ وَخَيْبَةِ
إلهي لا يشقى دُعَاتُكَ بِالدُّعَا	ولا بَاءَ بِالحِرْمَانِ إخْبَات مُخبتِ
إلهي لـولا نظرة أزليَّـــــة	إليَّ لما أنهضتني نحو دعـوتي
إلهي بشيري بالإجابة دعـــوة	أُرَتلُهَا والله حَاضِرُ حَضْـرَتِي
إلهي دُعائي ماله عنك حاجز	وعزم إرادتي وثَبِّت عزيمتي
إلهي أبواب الدعـــاء لمن دعا	مفتَّحة فاسمع دعائي وصرختي
- - - - - - - - - -	- - - - - - - - - -
إلهي أسباب الرِّضَاء تركتها	بتسويل شيطاني ونفسي الجريئةِ
- - - - - - - - - -	- - - - - - - - - -

(١) ديوان أبي مسلم : ص ١٢٥ .

إلهي إقدامي على ما كرهته ـــ لدى جنب عفو الله كالعديمةِ

فالمتأمل في الأبيات يشعر بصدق وجدان الشاعر؛ وخضوعه،وخشوعه، متخذًا الشعر وسيلة يدعو بها ربه ويُناجيه ؛ فكرر كلمة(إلهي) وهي لفظ الدعاء تسع مرات.

فالابتهال والدعاء شعرًا كان وسيلة من وسائل التقرب إلى الله. وقد قال عن نفسه في مقدمة قصيدة (درك المن في تخميس سموط الثناء)، ـ وهي تخميس لقصيدة شَيْخِهِ وإمَامِهِ في هذا الاتجاه، الشيخ/ سعيد بن خلفان الخليلي ـ : (.. ولكني امرؤ حالفت خدمة الأذكار، وَأُشْرِبْتُ حُبَّ الاعتراف من بحار الأسرار، وعلمت أن لهذه الدعوة (سموط الثناء) أثرًا سَاطِعًا، وبُرْهَانًا قَاطِعًا، أشهر من الشمس في كبد السماء، وأغزر بركة من عيالم الدأماء (البحار)، فاستمسكت بعروقها، وأخذت بِحُجْزَتِهَا، وجعلت مع التخميس لرب العزة نداء، ولبست لها من أديم السحر رداء.)([1]) .

لا غرو إذن أن يرتقي أبو مسلم بهذا اللون الشعري رتبة في السمو الروحي أرقى من كونه شعرًا يُنشد أو يُحفظ، وإنما اتخذه عبادة روحية يُصَفِّي بها نفسه من أدران المادة، وشرور الدنيا ؛ فهو يشعر بطمأنينة كبيرة في قربه من الله، لاسيما حينما يستبد به القلق، أو ينزل به خوف. لذلك فهو في شغل دائم بذكر الله والابتهال إليه ؛ وهو سائل دائم، وعائذ مخبت. على نحو قوله([2]) :-

سَيِّدِي سَائِل بَأَسْمَائِكَ الحُسْـ ـنَى عَلَى بَابِكَ العَظِيم الأَجَلِّ

سَيِّدِي عَائِذ بَأَسْمَائِكَ الحُسْـ ـنَى دؤوب بِحَبْلِهَا مُتَدَلِّي

سَيِّدِي مُخْبَتٌ بِأَسْمَائِكَ الحُسْنـ ـنَى وَأَذْكَارِهَا حَدِيثِي وَشُغْلِي

- -

سَيِّدِي مَنْ يَصْرِف هَوَاهُ إلى غَيْـ ـرِكَ لَم يلف مِنْكَ غَيْرَ التَّوَلِّي

(١) ديوان أبي مسلم . ص ١٥٤ .
(٢) الديوان . ص ١٣٩ .

سَيِّدِي كَيْفَ بِي وَقد بَرَّحَ الشَّوْ ... ق بِقَلْبِي إليْكَ وَاسْتَلّ عَقْلِي
سَيِّدِي لو أملت عَنْكَ هَوَى نَفْ ... سِي تَلَطَّفْت بِي فَعَدَّلت مَيْلِي
- - - - - - - - - - ... - - - - - - - - - -

لقد كان الشاعر يشعر بخواء روحي عندما تدلهم أمامه الحوادث، وتتحكم حوله حلقات الأزمات النفسية ؛ فلا يجد سبيلاً لدفعها سوى الابتهال والدعاء المتضرع إلى الله سبحانه وتعالى.

فقصيدة الابتهال والدعاء عنده استجابة نفسية ملحة لإنهاء هذا الخواء الروحي ؛ لاسيما أنه كثيرًا ما يشعر بضعفه البشري، وقلة حيلته وهوانه، فيغدو الدعاء لله حينئذ سلاحه، ونصيره ضد الطغاة والمستبدين.

بواعث اهتمامه بشعر الابتهال والدعاء :-

لقد اهتم أبي مسلم بشعر الابتهال والدعاء . كما أشرنا . لأنه يمثل الشاعر المسلم بكل ما تحمله الكلمة من مضامين ؛ حيث العقيدة الإسلامية الراسخة، والسلوك المحمدي الثابت ؛ والرؤية الإسلامية للكون والحياة، وهو إلى جانب هذه الخصائص السلوكية والعقدية، كان يمتلك شاعرية فياضة عَبَّرَ بها عن هذه المضامين بجماليات فنية متميزة جعلت التجربة الشعرية حَيَّة نابضة، تؤثر بقوة في المتلقي.

وهذا الجانب يمثل الأغلبية الساحقة من قصائده الشعرية ؛ حيث استحوذت قصائد الابتهال والدعاء عنده على القسط الأكبر في ديوانه ؛ وهي قد تبلغ ثُلثَي الديوان تقريبًا ؛ بل إن قصائده في الموضوعات الأخرى استنهاضًا ورثاء... إلخ...، لم تنظم إلا تحت هذا الإلحاح الإسلامي، وهذا النهج المستقيم . كما سيأتي بإذن الله تعالى ..

وقد قسم الديوان إلى عناوين توضح هذا المعنى، هي :-

الباب الأول وعنوانه :- القصائد الدينية.

الفصل الأول وعنوانه :- في ذكر الله جلَ جلاله . ١ . ٢٧٤.

الفصل الثاني وعنوانه :- في مدح الرسول ﷺ ٢٧٥ . ٢٩٥.

الباب الثاني وعنوانه:- القصائد الوطنية والقومية والعلمية.

الفصل الأول : - في الوطنيات. ٢٩٩ . ٣٥٢.

الفصل الثاني : - في المناسبات. ٣٥٣ . ٣٦٠.

الباب الثالث وعنوانه :- الحِكَم والمواعظ.

الفصل الأول : - في الحِكَمِ . ٣٦٣ . ٣٦٦.

الفصل الثاني : - في المواعظ. ٣٦٧ . ٣٨١.

الباب الرابع وعنوانه :- قصائد الرثاء.

الفصل الأول :- رثا ء العلامة أطفيش. ٣٨٥ . ٣٩٨.

الفصل الثاني :- رثاء نور الدين السَالمي. ٣٩٩ . ٤١١.

الفصل الثالث :- رثاء العلامة أحمد بن سعيد. ٤١٢ . ٤١٢.

الفصل الرابع :- رثاء العلامة سالم الريامي . ٤١٧ . ٤٢٢.

الفصل الخامس :- رثاء الفقيه راشد الغيني . ٤٢٣ . ٤٣٤.

الفصل السادس :- رثاء الإمام محمد خلفان الخروصي. ٤٣٥ . ٤٣٩.

الباب الخامس وعنوانه :ـ قصائد المديح والإخوانيات.

الفصل الأول وعنوانه :- إلى أبي الحارث. ٤٤٣ . ٤٤٤.

الفصل الثاني وعنوانه :- في تقريظ كتاب المنهل. ٤٤٥ . ٤٤٧.

الفصل الثالث وعنوانه :- في الشيخ عبد الرحمن الرواحي. ٤٤٨ . ٤٤٩.

الفصل الرابع وعنوانه :- في الإمام محمد المغربي الميزابي.٤٥٠ . ٤٥٥

الفصل الخامس وعنوانه :- قال تقريظًا لكتاب مختصر الخصال لنور الدين السالمي. ٤٥٧ . ٤٥٨.

الفصل السادس وعنوانه :- قال يمدح السيد حمد بن ثويني. ٤٥٩ . ٤٧٧.

الفصل السابع وعنوانه :- قال ردًّا على تهنئة بشفائه. ٤٧٨. ٤٧٩.

الفصل الثامن وعنوانه :- قال أثر رؤية ولده المهنا. ٤٨٠ . ٤٨١.

الفصل التاسع وعنوانه :- قال يمدح صهره الشيخ/سليمان الرواحي. ٤٨٢ . ٤٨٧.

الباب السادس وعنوانه :ـ قصائد الغزليات.٤٨٩ ـ ٤٩٧.

أما القصائد التي عني بها الشاعر في الفصل الأول من الباب الأول وجعل لها عنوان (ذكر الله جل جلاله). فقد ذكر الشاعر في مقدماتها :-

أنه كان يحتفل بأدائها بتهيئة نفسه بالطهارة والوضوء والتبتل والخشوع والصلاة في جوف الليل ؛ فتنساب تلك الأبيات على لسانه دعاء يناجي بها ربه في تلك اللحظات الروحيَة الرفيعة، تجيش بها عاطفته، ويفيض بها وجدانه، ويمتلئ بها قلبه، وتخفق بها جوانحه.

وما هذا الاحتفال الذي وصفه الشاعر، إلا ما تعارف عليه الأدباء والنقاد، بالتجاوب الوجداني مع التجربة والاستغراق فيها حتى يضمن الصدق الفني فيما يقدم.

وهكذا يرينا الشاعر انطباعًا عن اهتمامه بهذا المنحى الشعري ؛ الذي يكاد يتفرَّد به بين الشعراء المعاصرين له ؛ لا في عمان وحسب، بل في العالم العربي، لاسيما أنه اتخذه وسيلة يتقرَّب بها إلى ربه، كما يتقرَّب إليه بأي عمل صالح آخر؛ فهذا المنحى الإبداعي من التعبير عن المعاناة النفسية، والخلوة الروحية الشفافة عبَر عنها في قالب شعري جاشت به عاطفته.

محاور شعر الابتهال والدُّعاء

إن المتأمل في شعر أبي مسلم يجد أن قصيدة الابتهال عنده كانت تدور في محورين أساسيين، هما : -

١ ـ المحور الوطني بمفهومه العام : ـ

كانت ابتهالاته في هذا المحور تقوم على الدعاء على الظالمين والطغاة، رجاء تنقية الأمة من ظلمهم واستبدادهم.

فقد عُرِف عن أبي مسلم أنه من قادة الإصلاح الديني والاجتماعي الذين حاولوا معالجة أدران الأمة الإسلامية ـ عامة ـ والمجتمع العماني ـ خاصة ـ على كل الأصعدة ؛ فكريًا، وسياسيًا، ودينيًا ؛ حيث عبَّر بالشعر عن واقعٍ أليمٍ يعيشه هو، ويعيشه قومه، وتعيشه أُمَّته الإسلامية معه.

فقد كان ينطلق بسجيَّته الشعرية المتفتحة على العالم الإسلامي، بعد معايشة كاملة لهموم مواطنيه في عمان، وزنجبار، والمغرب، .. وغيرها.. إذ نراه ينتهز كل فرصة في ابتهالاتهِ ليرسل النبال القاتلة إلى الظالمين، والطغاة، ومَنْ دار في محرابهم. فاستخدم الدُّعاء وسيلة ـ كما استخدمه الرسول ﷺ في حربه مع المشركين والكفار ـ للنَيْل من الظالمين والطغاة.

لذلك نراه يتوجه بكل جوارحه إلى الابتهال بذكر أسماء الله الحسنى، استجابة لما يتحرك في نفسه من فوَّارت الانفعال ؛ متجهًا بها إلى الأسماء المناسبة مثل :

الجبار، والقهار، والقابض، والخافض، والمذل، والقوي، والقادر، والمنتقم، وسريع الحساب، وشديد العقاب، والقاهر، والحضرة القاسمة،.. وغيرها.. من ذلك ما نراه في لاميته التي يدعو فيها على الظالمين الذين ردد ذكرهم كثيرا دون أن يحدد هويتهم أو صفاتهم أو أسماءهم ؛ اتقاء لبطشهم، وتعميما لتناول كل من يقع منه ظلم،مع الإيماء إلى ثقته أنه لا يسئ إلى أحد، ولا يتجاوز حدوده مع أحد، فهو إنما يدعو الله أن يأخذ ظالميه بالعدل ؛ على ما في قوله(١) :-

رب قهر الرجال أشكو، فيا قا ... هِرَ هَبْ لِي قَهْرًا يَذِلُّ مُذِلِّـــي
يا شديد العقاب ذا البطش والأخـ ... ـذ الأليم الشديد خذهم بِعَـــدْلِ
وارث الأرض خُذْهم وَأَبِدْهـــم ... وانتصر لي منهم وخذ لي بذحلي
كَادَنِي الخَصْمُ يَا حَسِيبُ فَكِدْهُ ... أمْتِنِ الكَيْدَ لا تَدَعهُ بِمَهْـــلِ
أرني العدل فيه يا قائمًا بالـــ ... ـقسط والعدل منك ليس بسهلِ
رب أنت الشهيد والحكم العـــد ... ل انتصف لي من ظالمي واشف غِلِّي
لم تغب عنك يا رقيب مساعيـ ... ـه وأنت المحصي لقول وفعـــلِ
فَاصْطَلِمْهُ وَأَخْذهُ وَأَمِتْـــــهُ ... يا مميت الأحياء مَوْتَـــة ذُلِّ

فالشاعر يحتكم في ظالمه إلى عدل الله تعالى، وعلمه بمكنون النفوس، واطلاعه على ما يصدر منه، بقوله : قهر الرجال، والخصم، وظالمي ؛ دون أن يوضح هوية هذا الظالم، أو ما يشير إليه ؛ اللهم إلا صفة الظلم، والقهر، ونحو ذلك.... غير أنه في مواضع أخرى يعطينا إيحاءات توضيحية عن هذا الظالم، وإن لم يصرح به. كما جاء في قوله(٢) :

دعوت دعا المستجير وأنت يا ... قريب ترى ما مس جنبي فأعضلا

(١) الديوان : ص ١٣٨ . وراجع كـــذلك : ص ٦٨- ٧١ - ٧٣ - ٧٦ - ٩٠ - ٩٨ - ١٠٤ - ١١٦ - ١١٨ - ١١٩ .
(٢) الديوان : ص ١٥١ .

أجب دعواتي يا مجيب بثثتها ... وَفَرِّج على عبد أتاك مُعَوِّلا

- - - - - - - - - - ... - - - - - - - - - -

أيدركني ضيم نصيري ومن تكن ... له نصيراً مولاي كان المبجلا
ترى ظلم قومي يا مهيمن جانبي ... فجرد عليهم من مواضيك مقصلا
بِعِزِّكَ مجد يا مجيد مهابتي ... يظل لها خصمي العنيد مُذَلِّلا
وَكِد مَنْ رَمَانِي يا ودود بكيده ... فكيدك للأعداء لازال أفتلا

فهو هنا يومئ إلى ظالمه بقوله : ظُلم قومي ؛ وهذا الإيحاء فيه إشارة إلى أن الظلم وقع عليه من بعض قومه،ولكن أي قوم يقصد ؟ أيقصد قومه العُمانيين ؛ أم قومه العرب ؛ أم قومه المسلمين ؟ لا نجد ما يجيب على تلك التساؤلات. وقد يكون الظالم ـ في نظره ـ طاغية جَبَّارًا ؛ ولا يكون كذلك إلا إذا كان يمتلك النفوذ والسلطة ؛ وهذه الشريحة من الظلمة دعا عليهم أبو مسلم كثيرًا ورَفَعَ أكُفَّ الضراعة ؛ لينزل الله عليهم انتقامه وعذابه. على ما في قوله(١) : –

ربِّ أشكو إليك طاغية فَاكْبِتْهُ ... كَبْتًا وأبهله أعظم بهلِ
ربِّ نكِّل به وشدِّد عليه ... وطأة الانتقام في غير مَهْلِ
أعطني قوةً عَلَيْهِ وحولا ... ليس يقوى بغير حولك حولي
مُدَّني مِنْ قُوَى سُلْطَانِكَ بِقَهْرٍ ... وَاقْتِدَارٍ يَطْوِيهِ طَي السِّجِلِّ
واكسني من جلال عِزَّة أسْمَا ... ئِكَ عِزًّا لا يُستضام بِذُلِّ

وأما الدعاء على الكافرين،فيقصد بهم أولئك المستعمرين الذين ظلموا بلاده، واستباحوا خيراتها، وفرَّقوا بين أهلها، وتجبَّروا على أبنائها، وأشاعوا بينهم الخبائث والمنكرات. كما في قوله(٢) : –

إلهي مذل الكافرين بكفرهم ... بعلمك فعل الكفر في القدمية

(١) الديوان . ص ١٤١ .
(٢) الديوان : ص ٧٦ .

إلهي مذل الماردين وإن جروا ... إلى أمد ما لم يفروا لمنعةِ
أحاط بهم سلطان قهر وعزة ... فهم وإن اعتزوا غروراً بذلةِ
- - - - - - - - - - ... - - - - - - - - - -
إلهي تَعَدَّى خَصْمُكَ الحَدَّ وَاعْتَدَى ... على حُرماتِ الله بالأغلبيةِ
فارسل عليه يا مُذل قواصف الـ ... ـنكير وسربله سرابيل لعنةِ
وصُبَّ عليه الذُّلَّ قلباً وقالباً ... وفي جاههِ والمالِ والتبعيةِ
مصائب ذُل يختبطن حياته ... ويحطمنه حطم الدريس المفتَّتِ(١)

ويصل أبو مسلم في هذا الاتجاه إلى الذروة العليا من خلال القسم الخامس من (درك المُنى في تخميس سموط الثنا)، الذي جاء تحت عنوان: (في الدُّعاء على أعدائه بقطع دابرهم واستئصال أولهم وآخرهم). والذي يمتزج صوته فيه بصوت شيخه (سعيد بن خلفان الخليلي) ؛ فَيَصْعَدَا مَعًا إلى عنان السماء، من حيث الدَّعوات الملتهبة التي تنال من رؤوس الكافرين والظالمين. حيث يقول(٢):

ومزِّقهم اللَّهُمَّ كُل مُمَزَّقِ
بأهلِكَ غُلْبًا فَيْلَقًا بعد فَيْلَقِ
ونَكِّل بهم وامحقهم بالتفرُّقِ
ويا ربِّ مزِّق كُلَّ سُورٍ وخَنْدَقٍ ... عليهم وَحِصْنٍ شَامِخٍ وَوَصِيدِ
طَغُوا في بِلادِ اللهِ لما تطقهمُ
وتغييرك اللَّهُمَّ لم يعتنقهمُ
وإنَّك بالمرصادِ خُذهم وبِقْهمُ
وقد مَكروا فامْكِر بهم وأَذقهم ... عواقب مكر في البلاد شديدِ
لقد وطئوا الدنيا برجس مرجسِ

(١) يختبطن : يقصد : بما يفسد عليها أمرها ، ويعكرها بالشر والأذى ...
الدريس : وهو كل ما يدرس ويحطم تحطيما .
(٢) الديوان ص ١٦٦ .

وعاثوا بظلم في عبادك مُضـرسِ

شياطين ملعونين من كل مُبلسِ

فَطَهِّر بقاع الأرضِ منهم بأنفسٍ مِنْ البغي تجريها بِكُلِّ صعيدِ

ويواصل الشاعر مسيرته في ابتهالاته مستنزلاً غضب الله تعالى على أعدائه الظالمين، راجيًا الله أن يأخذ قواهم، ويبيدهم، ويصيبهم بالخزي واللعنة ؛ مستعينًا في التعبير عن ذلك باختيار الأسماء الدالة على القوة، والجبروت، والقدرة، والانتقام، فيجعل عنوان المقطع التالي (القوي جل جلاله)(١) : –

قَوِيٌّ عَلَى نَصْرِي وَتَمْجِيدِ هَيْبَتِي وتأييد نصاري وإعلاء كلمتي

قَوِيٌّ عَلَى تَدْمِيرِ خَصْمِي وَقَصْمِهِ وَإِلْقَائِهِ فِي هُوَّةِ العَدَمِيَّـــــةِ

قَوِيٌّ عَلَى إِنْهَاضِ جدي وَإِنْ كَبَا وَإِنْعَاشِ ضَعْفِي عِنْدَ وَهنِي بِقُوَّةِ

قَوِيٌّ عَلَى إِرْكَاسِ كُلّ مصـــوبٍ إلى حُرمَاتِ اللهِ كل مُصيبـــةِ

– – – – – – – – – – – – – – – – – – – –

ضَعِيف أُنَادِي تَحْتَ قُـوَّةِ قَـــــادِرٍ قَوِيٌّ وَلا سُلْطَان لِي غَيْر ذِلَّتِي

فَمَا ظَالِمِي مِنْ قَبْضَةِ القَهْرِ خَارِج وَلا مِنْ أَلِيمِ الأَخْذِ يَوْمًا بِمُفْلِتِ

وهكذا كان أبو مسلم ينتفض من خلال روح جهادية ترتبط بعقيدته الإسلامية الراسخة، مصورًا ما يتفجر بين جوانحه من ثورة وسخط، وغضب، مما أضفى على ابتهالاته سمة الوطنية بالمفهوم الإسلامي.

وكان ثمرة هذا الفهم الواضح الصحيح تقديم هذا اللون من الشعر الذي يصح أن نجعله وطنيات توسل فيها بالإيمانيات، فنقول إن هذا الشعر وطني. وبذلك قدم لنا توجهًا وجدَانيًّا غفل عنه طائفة من دارسينا ظَنًّا منهم أنه شعر فارغ من المضمون، أو خال من المشاعر. في الوقت الذي احتفلوا فيه بما يضارع هذا مما حملتة لنا الآداب الأوربية تحت اسم (الرومانسية)، أو النزوع الرومانسي؛

(١) الديوان . ص ٩٠ .

على الرغم مما يمتاز به هذا النزوع الابتهالي من إيجابيات تكاد تختفي تمامًا في الرومانسية بما تفيض به من سلبية قاتلة.

٢ـ المحور الشَّخْصي : ـ

أما ابتهالات الشاعر الشخصية فكان يدفعه إليها حاجات شخصية مختلفة من أبرزها :-

توسيع الرزق ووقايته الفاقة والعوز . تفريج الأزمات . و إيناس النفس. ويلاحظ الدارس أنه في ابتهالاته تلك ينطلق بالتوجه المباشر إلى الله تعالى تارة، ويتوسل برسول الله ﷺ تارة أخرى، ويتوجه توجهًا صوفيًا تارة ثالثة.

فنراه في التوجه الأول :ـ

يدعو الله تعالى أن يوسع له في الرزق ليكفيه ذل السؤال والحاجة. وهو كلما فعل ذلك يذكر أن طلبه ليس من أجل الدنيا وزخرفها، أو حبًّا في المال لذاته، وإنما ليصونه عن التذلُّل للناس،بعدما قعد عن مساعدته أقاربه، ورجال أسرته. كما نراه في قوله(١) : -

عسى نفحات اسم الرحيم تَوَارَدَتْ ... بِعَارِفَة الحُسْنَى عَلَى حَلِّ عُقْدَتِي
عسى نفحات اسم الرَّحِيم تكون لي ... على خطة أعيت محالي وَقُوَّتِي
عَسَى نَفَحَات اسم الرَّحِيم تُنْيلُنِي ... بِوسع ندى يجتاح فقري وعُسْرَتِي
عَسَى نَفَحَات اسم الرَّحِيم تَقوم بِي ... وقد قعدت عني رجالي وأُسْرَتِي

ويسأل الله مُتَضرِّعًا، ألا تُلْجِئهُ الفاقة إلى أن يَذلَّ نفسه أمام الخلق ببسط يد السؤال ؛ فإنَّ موقف الذُّل لا يَرْضَاهُ لنفسه سوى أن يكون لمولاه عَزَّ وَجَلَّ. على ما في قوله(٢) : -

بِطُولِكَ مَلِّكْنِي غِنًى غير نَافِدٍ ... وَهَبْ لِي مُلْكًا مُدَّةَ العُمْرِ كَافِيَا
وَوَفِّر لِي النَّعْمَاءَ وَافْتَح خَزَائِنَ الـ ... ـمَوَاهِبِ وَابْسِطْ لِي وَوَسِّع ثَرَائِيَا

(١) الديوان . ص ٦٤ .
(٢) الديوان . ص ١٤٥ .

وَصُنْ بِالغِنَى يَا مَالِكَ المُلْكِ وَالرِّضَا ... صَحِيفَةَ وَجْهِي عَن ذَلِيلٍ مُثَالِيَا
ولا تلق حاجاتي إلى غير قادرٍ ... عَلَى النَّزْعِ وَالإِيتَاءِ مادمت باقيا
فلا خير إلا مِنْ يَدَيْكَ وَلا غِنَى ... لَكَ الملك تؤتي الفضل تولي الأياديا

التوجه الثاني : ـ

وفي هذا التوجه يستعين الشاعر بالرسول ﷺ فيتوسل به، استنادًا إلى التكريم الإلهي، الذي جعله ﷺ شفيعًا للمؤمنين.

فأبو مسلم في ابتهالاته ودعائه يجد في محبة الرسول ﷺ وسيلة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، ليتقبل دعاءه، ويتفيأ بها تحت ظلال رحمته. لذلك نراه يلجأ إلى ذلك . غَالِبًا . في خاتمة ابتهالاته على وجه العموم. كما نراه في قوله(١) : –

إلهي بِجَاه السَّيِّد الأكْرم الذي ... هُوَ الرَّحْمَةُ العُظْمَى لِكُلِّ الخَلِيقَةِ
مُحَمَّد البرّ الرَّحِيم الذي أتَى ... حَرِيصًا عَلَيْنَا بين برٍّ وَرَأفَةِ
تَوَسَّلْتُ مُلْتَاذًا بِسُلْطَانِ قُرْبِهِ ... إليْكَ وَحَسْبِي أن يكون وَسِيلَتِي
وَمَنْ يَتَوَسَّل بِالرَّسُولِ مُحمَّد ... يُلاق المُنَى مِنْ عَيْنِ كُلِّ رَغِيبَةِ

أبو مسلم تحدوه روح محبة الرسول ﷺ ؛ ساعد على تعميق حبها ما جاء به القرآن الكريم من تقرير حُبّ الرسول ﷺ ورأفته بهم، ورحمته، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾(٢).

ويدفعه إلى ذلك أيضًا، دعوة القرآن الكريم كل مسلم يجد أنه في ضيق، أن يلجأ إلى رسول الله ﷺ مستغفرًا ربه، رجاء أن يستغفر لهم الرسول ربه فينالهم رضوان الله تعالى. كما جاء في قوله تعالى : –

(١) الديوان . ص ١٣٠ .
(٢) التوبة . ١٢٨ .

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ (١).

فالقرآن الكريم وجهنا إلى محبة الرسول الكريم ﷺ قبل أن يكون ذلك تأثرًا بفلسفة ما، لذلك باتت تلك المحبة من أهم سمات المؤمن الحقيقي.

وعلى هذا النحو كان أبو مسلم في توسله بالرسول ﷺ، كما أوصى الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، واستنادًا إلى التكريم الإلهي الذي كرم رسوله الكريم ﷺ وجعله شفيعا للمؤمنين. مما جعله يقول(٢) : –

يَا سَيِّدِي يَا رَسُول الله قَد وَصَلَتْ	إليْكَ حَالِي فَصِلْهَا مِنْكَ بِالنَّظَرِ
فَنَظرَةٌ مِنْكَ فِي حَالِي يَكون بِهَا	فَوْزِي بِرَبِّي وَإنْقَاذِي مِن الضَّرَرِ
يَا سَيِّد الرُّسُلِ ضَاقَتْ كُلّ كَائِنَةٍ	"بِنَاصِر" فَلْتَكُن لِي خَيْرَ مُنْتَصِرِ
وَإنْ يَضِق بِي أمْرِي فَهْوَ مُتَّسِعٌ	بِوسع جَاهِكَ فِي وردي وَفِي صَدْرِي
هَذَا الرَّجَاءُ حبيب الله مُنْبَسِط	فَابْسِط يَمِينُكَ بِالحُسْنَى إلى ضَرَرِي

مما تقدم نستطيع القول إن قصيدة الدعاء والذكر عند أبي مسلم كشف جليٌ للآلام والآمال والقلق في نفسه ؛ لاسيما الحالات النفسية المتناقضة كالرضا والغضب، والسعة والضيق، والقلق والطمأنينة، والأمن والخوف.

وتقسيم الشاعر هذه القصائد إلى محاور موضوعية هو في حقيقة الأمر استجابة نفسية لدوافع هذا التناقض النفسي، فيلجأ إلى الله داعيًا مبتهلاً في كل حالة نفسية ؛ متوجها إلى المناسب من أسماء الله، حسب حاجات النفس ومتطلباتها. وهو يصرح بذلك مُعَلِلاً تقسيم الذكر إلى ما يسميه حضرة ؛ وكل حضرة تشتمل على مقطع يتواءم معها، فيقول (٣) :–

(١) النساء . ٦٤ .
(٢) الديوان . ص ٢٨٢ .
(٣) الديوان . ص ١٩١ .

(... ثم إن مقاصد الداعين متعددة ؛ فيأخذ الداعي ما ناسب مقصده، ولا بأس من جمع حضرة بأخرى إذا ناسبتها بحسب المقاصد، ولو على غير ترتيب الأسماء الواردة، كما لو جمعت أسماء الجلال، وأسماء الكمال، كل منهما على حدة، لما تقتضيه المظاهر...).

التوجه الثالث :ـ

وفيه اتجه الشاعر اتجاها صوفيا ؛ وهو من توجهات الذات الشاعرة التي يقتحم بها الشاعر الجانب العقائدي، على الرغم من توهم اختصاص العقل به، حيث يتناول قضايا العقيدة، من خلال التجاوب الذاتي، والتفاعل معها ؛ والشاعر بذلك يضيف بُعْدًا جَديدًا، واتجاهًا عَمِيقًا من الاتجاهات الذاتية، بما تزخر به من قوى وجدانية،دون أن يصيبها بالجمود أو الفصام.

يتضح ذلك بجلاء في القصائد المتتابعة في ديوان الشاعر. وهي:

١ ـ (النفحة الفاتحة في التوسل بأسماء الفاتحة)، التي مطلعها([1]) :-

باسمك يا الله أخلصت داعيـــا أزل حظ نفسي لا تدع منه باقيا

٢ ـ (المعرج الأسنى في أسماء الله الحسنى)، التي مطلعها([2]):-

على المعرج الأسنى من الذكر عوّلا فإشراق شمس السِّر فيه تهللا

٣ ـ (مَقْدَسُ النفوس)، التي مطلعها([3]) : -

أصبحت لا أملك للنفس وطـــر ولا أرد ذرة من القـــــــــدر

٤ ـ (الكلام الطيب)، التي مطلعها([4]) : -

غُفْرَانَكَ اللَّهُمَّ يَا رَبَّـــــــــاهُ يَا سَامِعًا دُعَاءِ مَنْ دَعَـــــاهُ

(١) الديوان . ص ١٤٣ .
(٢) نفســه . ص ١٤٨ .
(٣) نفســه . ص ١٧٢ .
(٤) نفســه . ص١٩٢ .

٥ ـ (الباقيات الصالحات)، التي مطلعها(١) : ـ

سبحانك ذي اللطف بسم الله بالله كم كُربة حلَها لطف مـن اللهِ

٦ ـ (فرع الحياة المقدسة)، التي مطلعها(٢) : ـ

الله حي لا يـزال ولـم يـــــــزل في ذَاتِـهِ وَبِـذاتهِ وَلِذَاتـــــــهِ

٧ ـ (طمس الأبصار عن إدراك رؤية ذات الجبار)، التي مطلعها(٣):ـ

نزِّه إلهك أن يُرى كي تعرفـــــه أتُرَاكَ تَعْرِفهُ وتُثْبِتُ ذي الصفةِ

٨ ـ " الوادي المقدس ". والتي مطلعها(٤) : ـ

طنبت في الوادي المقدس خيمتي ورعيت بين شعوبه أغنامي

٩ ـ " خمرة الله ". والتي مطلعها(٥) : ـ

نصبت لهم من نير الذكر معلما وبوَّأتهم من أنفع الذخر مغنما

حيث نرى الوجد الصوفي ـ بمعناه العام ـ مسيطرًا على وجـدان الشاعر؛ لاسيما أن القارئ يستشعر صدق توجه الشاعر إلى الله، وقـوة الارتباط بـه، والشوق الدائم إلى حضرته دون الحاجة إلى تدخل العقليات بمـا تمتاز بـه من جدل قد يصرف عن الحقيقة ؛ وسعى إلى تقديم الأدلـة الماديـة ؛ وهذا نفسه هو ما تشير إليه مضامين شعراء الصوفية.

وإذا كان المجال لا يسمح باستعراض ذلك في قصائده كلها، فإننـا نستطيع أن نجلي تلك الحقيقة في قصيدته (المعرج الأسنى في أسمـاء الله الحسنى)، تلك التي أفردها الشاعر للدعاء الخاص، كما أوضح هو نفسه في مقدمته النثرية ؛ حيث يقول(٦) : ـ

(١) الديـوان : ص ٢١٤ .
(٢) نفســه : ص ٢٦٧ .
(٣) نفســه : ص ٢٦٨ .
(٤) نفســه : ص ٢٧٣ .
(٥) الديوان : ص ٢٧٤ .
(٦) الديوان : ص ١٤٨ .

(.... وبعد فهذه نفثات عرشيَّة، وكلمات قُدْسِيَّة، عبق عبيرها من رياض الأسرار الفرقانية، وأشرق ضوؤها عن مشكاة الأنوار الأسمائيَّة، أجراها الله على لسان عبده المفتقر إلى رحمته، ولقد بَلوْتها عند الشدائد، فوجدتها غياثًا جميلاً، ورُكْنًا جَلِيلاً، والحمد لله حدَّ النهاية، وهاكها حسب ما جادت به العناية...).

ثم يقسم الذِّكر إلى مضامين شعرية على النحو التالي : -

أولاً : ■ " مقدِّمةٌ في شروط الذِّكر" :- وفيها بدأ الذكر بوضع شروط له وقواعد، على نحو قوله : -

على المعرج الأسنى من الذِّكْرِ عَوِّلا	فَإشْرَاقُ شَمْس السِّرِّ فيه تهللا
وما هو إلا ذكر أسماء ربنـــــــا	تعالى ولكن كن على الشروط أولا
فأوله التطهير للقلب من أذى المعا	صي وثانيه التفرد في الخـــــلا
وثالثه الإخلاص لله وحـــــــده	وهذا ملاك الأمر فالزمه مقبلا
ورابعه استقبالك البيت في الدعا	وخامسه كون الوضوء مُكَمِّلا
وسادسه صوم الخميس محبـــب	وفي سَحَر الزَّهْرَاءِ لِلذِّكْرِ فَاعملا
وفيها على حسب التصاريف أصلت	شروط وذا حسب التبرك أصلا

فقد وضع أبو مسلم لمن يريد خوض هذا الميدان شروطًا، تتعلق بالإعداد النفسي ؛ حيث طهارة الظاهر والباطن، والتفرُّد بعيدًا عن ضوضاء الدنيا وماديتها.

وهذا يوحي أنه كان متأثرًا بهذه السلوكيات التي وضعها الصوفيَّة في مقاماتهم. غير أن هذه الشروط التي وضعها قبل التأهب للذكر هي من آداب الدعاء قبل أن تكون تعاليمًا صوفية، لأنها في حقيقة الأمر لا تخرج عن إطار الإعداد الروحي للسمو بالنفس البشرية من دنيا المادة، وأدران الحياة اليومية؛ وهي ـ كما ذكرها في مقدمة شروط الذكر ـ تطهير القلب، والتفرُّد في الخلاء، والإخلاص لله وحده، واستقبال القبلة عند الدعاء، والطهارة بالوضوء، وصوم يوم الخميس تبركًا،لما للصوم من كسر غلواء الجسد،ومطالبه المادية.

ثانيًا : ▪ " اللطيفة الأولى ":-" في سؤال تزكية النفس بواردات القدس ". حيث يقول : -

فتلهج يا الله في القصد مخلصًا	بسرِّ اسمك الذاتي قدري جللا
أنلني يا رحمن أوسع رحمة	فقد جل خطبي يا رحيم وأعضلا
ويا رب أصلح لي عبوديتي أكن	مطيعًا خضوعًا خَاشِعًا متبتلا
----------	----------

ثالثًا : ▪ " اللطيفة الثانية :- " في استمداد الأنوار العلمية والأسرار الحكميَّة " فيقول : -

ونوِّر جناني يا عليم بومضة	من العلم تحييني بها متجملا
وزيِّن فعالي يا حكيم بحكمة	فمن تؤتها فالخير قد حاز مجملا
بأرواح لطف لطيف رياحها	لدنية نفّح جناني وعلا
ألا يا خبير اكشف لسري غوامض الـ	ـغيوب وكُنْ لِلسِّرِّ سري مؤهلا

رابعًا : ▪ " اللطيفة الثالثة " :- " في الدعاء لدفع الآفات والكلاءة من طوارق المخافات. فيقول : -

وكيف أخاف الحادثات وإنما	أمانك لي يا خالقي كان معقلا
وحفظك حرزي يا حفيظ وممنعي	فلم أختش من حادث الدهر موجلا
أفوض أمري واضطراري ومهنتي	لمقتدر باق فيكشف معضلا
محيط بكليات عجزي وفاقتي	قدير أزل ضعفي ووهني معجلا
- - - - - - - - - -	- - - - - - - - - -

خَامِسًا : ▪ " اللطيفة الرابعة " : - " في تطهير النفس بالاستغفار من موبقات الأوزار ". فيقول : -

عبيدك يا تواب جاءك عَائِذًا	تحمل ذنبًا فاعف ذنبًا عَمَّا تحملا

وجد بمتاب يا عفو ورحمـــة ... على عبد سوء طالما عنك أغفلا
ببابك يدعو يَا بَصِيرًا بحالـه ... فأوسع له يا واسع الفضل مجزلا
أتيت ذُنوبًا يا غفور فكن لها ... وقد تبت منها يا حليم مبدلا
- - - - - - - - - - ... - - - - - - - - - -

سَادِسًا : ـ " اللطيفة الخامسة " : - " لفتح خزائن النعم وانبساط فيوض الكرم ". فيقول : -

يُؤوبُ احْتِيَاجِي يَا غَنيّ وَفَاقَتِي ... إليْكَ فَبِالنَّعْمَاءِ بُؤسِي بَـــدِّلا
وَيَا بَرّ خَوِّلْنِي بِبِرِّكَ نِعْمَـــةً ... فَأغْدُو بِنَعْمَاءِ المَلِيكِ مُخَـــوِّلا
وَيَا بَاسِط ابْسِطْ لِي مِنَ المَالِ بَسْطَةً ... وَهَبْنِي انْبِسَاطًا فِي الشُّهودِ مُكَمِّلا
وَيَا صَمَدٌ امْنَحْنِي الغِنَى سَرْمَدًا ... أصُونُ بِهِ يَا رَب وَجْهِي عَن الملا
- - - - - - - - - - ... - - - - - - - - - -

سَابِعًا : ـ " اللطيفة السادسة " : - " في كسر شوكة ذوي الفساد وحسم صائلة أهل العباد ". فيقول : -

ويا قاهر اقْصِم دولة السُّوءِ وَامْحُهَا ... وَشَرِّد بِهَا واشدد عَلَيْهَا مُعَجِّلا
ويا وارث اصرف سورة البغي وانتقم ... بِعَدْلِكَ مِمَّنْ بِالضَّلالِ تَسَرْبَلا
ويا باعث ابعث راية الحق حولها ... جنودك تبلو في رضاك وتبتلي
وَيَا قَائِمًا بِالقِسْطِ قوم مُسَدداً ... قَوِيًا عَلَى إظْهَارِ دينكَ فَيْصَلا
- - - - - - - - - - ... - - - - - - - - - -

والمتأمل في هذه اللطائف الست بعد المقدمة، يتذكر (مقامات الصوفية وأحوالهم التي وضعوها للسالك في هذا الطريق، والمقيم عندهم مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام من العبادات، والمجاهدات الرياضية، والانقطاع إلى الله تباركت أسماؤه...)(١).

(١) التصوف الإسلامي وأثره في الأدب والأخلاق : د/ زكي مبارك . ٢ / ١١٧ ، ١١٨ . وما بعدها .

والمقام عندهم هو التوبة النصوح، وهو ندم القلب، واستغفار اللسان، وترك الجوارح، وضرورة عدم عودة التائب إلى الذنب وقد ذكر الصوفية عشر خصال ينبغي أن يتجلى بها العبد في مقام التوبة قبل أن يتجاوزها إلى المقامة الثابتة، وهي مقام الصبر، ومقام الرجاء، ومقام الرضى، ومقام الرفعة، ومقام الفقر، ومقام الورع. ويكون العبد في مقام على حال خاصة من أحوال يعرفونها(١)، وهي متداوله في كتب الصوفية ؛ ولكن المجال لا يسمح بتفصيل القول فيها.

وهذا نفسه ما نجده عند أبي مسلم حينما يعرض نفسه على ربه . من خلال الذكر . دون مواربة، أو تكلف، لأن مقام الدعاء عنده، هو مقام استغفار من الذنب، والتوبة النصوح، والندم على ما بدر منه في جنب الله، كما جاء في قوله(٢) : –

وَيَا غَافِرَ الذَّنْبِ اغْتَفِرْ لِي قَبَائِحُهَا ... تَجَشَّمْتُهَا فِي جَهْرَتِي وَسَرِيرَتِي
تَعَوَّدْتُهَا لا عُذْرَ لِي فِي اقْتِرَافِهَا ... سِوَى خِسَّتِي طَبْعًا وَشِدَّةَ شَهْوَتِي
إِلهِي اكْتَسَبْتُ الإِثْمَ عَمْدًا كَأَنَّهُ ... لِكَثْرَةِ مَا آتِيهُ أعظم قُرْبَـــــةِ
– – – – – – – – – – ... – – – – – – – – – –
يُنَبِّهُنِي القُرْآنُ فِي غَفْلَةِ الهَوَى ... فَأَصْدِفُ عَنْهُ مُسْتَمِرًّا بِغَفْلَتِي
– – – – – – – – – – ... – – – – – – – – – –
أَقِلْ عَثْرَتِي يَا غَافِرَ الذَّنْبِ إِنَّ لِي ... يَقِينًا بِغُفْرَانٍ وُجُودٍ وَرَحْمَـــةِ
إِذَا انْتَابَكَ المُسْتَغْفِرُونَ بِحُجَّةٍ ... فَجُودكَ رَبِّي حُجَّتِي وَوَسِيلَتِي

وهكذا يتضح تأثر أبي مسلم بالصوفية في شروطها الخاصة في الندم والتوبة كي تُنَقِّي النفس من أدرانها، وَتُطَهِّر القلب من ماديات الدنيا الدَّنيَّة. حيث توطدت الصلة بين أدعية أبي مسلم، وشعر التصوف ؛

وعلى الرغم من ذلك فإن شعر الشاعر في هذا الاتجاه يشير إلى أنه لا ينتمي إلى مذهب محدد، أو توجه خاص من توجهات المتصوفة، لكنه شاهد صدق

(١) الديوان : ص ٢ /١١٩ .
(٢) الديوان : ص ١١٧.

على شفافية العلاقة بين الذات الإنسانية وخالقها ؛ ولذا كان فياضًا برقة المشاعر، وصفاء النفس، وتلقائية الانفعال.

وتجدر الإشارة إلى أن الشاعر تأثر بالمتصوفة كذلك في مدائحهم النبوية؛ ذلك الفن الذي ذاع صيته وانتشر على يد المتصوفة، على ما قرره الدكتور / زكي مبارك في قوله(١) : - (المدائح النبوية من الفنون الشعرية التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلا من قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص...

وأكثر المدائح النبوية قيلت بعد وفاة الرسول ﷺ، وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء ؛ لكنه في الرسول ﷺ يسمى مدحًا، كأنهم لاحظوا أن الرسول ﷺ موصول الحياة... في أمته التي ترك فيها سنته وهداه، فهم بهذا يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء...

ولم يكن فنًا ظَاهرًا بين فنون الشعر كالرثاء، والوصف، والنسيب؛ وإنما هو فن نشأ في البيئات الصوفية، ولم يهتم به غير الصوفيين إلا في القليل...).

والمتتبع للمدائح النبوية عند أبي مسلم يجده فيها يتوجه وجهتين؛ فهو مرة يجعل المديح النبوي مَقْصِدًا أسَاسيًّا له، حيث قدم في ذلك قصائد مستقلة خصصها للمديح النبوي ؛ ومرة أخرى يجعل المديح وسيلة تقرب إلى الله، وتشفع،كما في قصائد الدعاء والذكر التي يختتمها بمدائح الرسول ﷺ ؛ معتبرًا ذلك وسيلة للتقرب من الله سبحانه وتعالى، ودعاء وذكرًا، وكان ذلك دأبه . في الغالب الأعم . فيما كتبه وقصده من قصائد الدعاء والذكر.

فالحب الجارف الذي يشعر به الشاعر نحو رسول الله ﷺ جعله يستخدم كل ما لديه من طاقة تعبيرية وتصويرية ؛ صادرًا عن إيمان عميق، وإعجاب شديد به

(١) المدائح النبوية في الأدب العربي : د/ زكي مبارك . ص١٧ . منشورات المكتبة العصرية - بيروت - لبنان . ط / الأولى سنة ١٩٢٥م .

ﷺ ؛ حتى بات حبه له حاجبًا له عن التفرقة بين الكدر والصفو. على ما في قوله(١) : –

يَا بَاطِنًا لم تَفُتْهُ البَاطِنَات ولـم ... يُدرك مقاماتِهِ علم من الفطـرِ
أنْوَارُ حُبِّك في قَلْبِي قَد انْطَبَعَت ... جبلَة كَانْطِبَاعِ الشَّمْسِ فِي القَمرِ
مَازَالَ حُبُّكَ فِي روحي يُخَامِرُهَـا ... حَتَّى تَجَرَّدت عَن عَيْنِي وَعَنْ أثَرِي
مَا لِلمَحَبَّةِ مِقْدَار إذَا اقْتَصَـرَت ... الحَقُّ حُبُّك حُبٌّ غَير مُقْتَصَـرِ
تَجَرداً مِنْ هَنَـاتٍ كُلُّها حجـــب ... لا وَصَل والحُبُّ محجوبٌ بذي السُّترِ
أدْعُوكَ خَلْفَ حِجَابِ الكَوْنِ مُنْبَسِطًا ... فِي بَسْطِ حُبِّكَ لم أخلص من الأثرِ
ذهلتُ عَن كُلِّ شَئ مُذ علقتُ بِهِ ... فَلا أُفَرِّقُ بَيْنَ الصَّفْوِ وَالكـــدرِ
لا أحْسَبُ الروح إلا أنهـا خُلقـت ... مِنَ الهَوَى فَاخْتَفَت عن عَالم الصورِ
فَلا عِلاجٌ لهَا مِنْ أصْلِ فِطْرَتِهَا ... إذَا أُصِبْتُ بِسَهْمِ الحُبِّ عَن قَدَرِ

وعلى هذه الوتيرة يمتلئ شعر أبي مسلم بهذا الحب الصادق، حيث يبرز ما يراه فيه من صفات سامية. وفي هذا الاتجاه استخدم الشاعر المصطلحات الصوفية. كقوله(٢) : –

عَلَى المُصْطَفَى الهَادِي إليْكَ مُحَمَّد ... رَسُولك ختم الرُّسلِ خَيْرُ البَريَّـةِ
هُوَ الجَامِعُ الأسْمَاء جَمع تَحَقُّقٍ ... ومُشكاة مِصْبَاحِ الصِّفَاتِ الجَلِيلَةِ
هُوَ الجَامِعُ الأسْرَارِ فِي جَيْبِ سِرِّهِ ... هُوَ المُشْرِقُ الأسْرَارِ فِي أيِّ وُجْهَةِ
هُوَ الكَاشِفُ الأسْتَارِ عَن نَيِّرِ الهُدَى ... هو البَاعِثُ المَبعوثُ بالحنفيَّـةِ
هُوَ الأولُ المَكنون في أبْحُرِ الخَفَا ... هُوَ الآخرُ المَقْصُود فِي كُلِّ رُتْبَـةِ
هُوَ الظَّاهِرُ المَعْلُوم قَبْلَ ظُهورِهِ ... هُوَ البَاطِنُ الخَافِي بِكُلِّ حَقِيقَـةِ
– – – – – – – – – – – ... – – – – – – – – – – –
هُوَ النَّاصِرُ الآمِرُ الإلهي حَازِمًا ... مَنِيعًا عَلِيًّا فِي مُقَـامِ المَعِيَّـةِ

(١) الديوان . ص ٢٧٦.
(٢) الديوان . ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

ولعل من أبرز هذه الصفات الصوفية في الأبيات السابقة :

(الجامع الأسماء . الجامع الأسرار . الكاشف الأستار . الأول المكنون . الظاهر المعلوم).

كما استخدم هذه المصطلحات في قوله مخاطبًا الله جل شأنه(١) :-

تَوَلَّيْتهُ وَاخْتَرْتهُ وَمَلأتـــــــــهُ ... بِنُورِكَ وَاسْتَخْلَصْتهُ لِلمَحَبَّـــــــةِ
وَبَوَّأتهُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ أتَمَّـــــــهُ ... وَأزْكَاهُ، وَالأكْوَانِ فِي العَدَمِيَّـــــةِ
فَكُلُّ مَزَايَا الرُّسل وَالأنْبيَاء فِـــي ... بِحَارِ مَزَايَا شَأنِهِ حُكم نُقْطَـــــــةِ
وَمَا طَمع الأمْلاكِ وَالرُّسُلِ مُطْلَقًا ... بِأنْ يَبْلُغوا مِقْدَارهُ مع نسبَـــــــةِ
وَلا جُنْح الأبْـرَارِ أنْ يَتَزَلَّفُـــــوا ... إليْكَ سوَى مِنْ بَابِهِ عِنْدَ قُرْبَـــــةِ
قُسِّمت حُظوظ القُرْبِ بَيْنَ جَمِيعهم ... وَلَكِنَّهَا مِن حَظِّهِ فِي الحَقِيقَـــــةِ

فأبو مسلم يُضْفِي صفات المتصوفة على الرسول الكريم ﷺ، لاسيما أفضليته للخلق بما فيهم الأنبياء والمرسلين، واستمدادهم أنوار الهداية منه ؛ وهذا يذكرنا بقول البوصيري في بردته :-

وَكُلُّهم مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِـــسٌ ... غُرَفًا مِنْ البَحْرِ أو رَشْفًا مِنْ الدِّيَمِ
وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِـــــم ... مِنْ نُقْطَةِ العلم أو مِنْ نسلة الحِكَمِ
وَكُلَّ آيٍ أتَي الرُّسلُ الكِرَامُ بِهَـــا ... فَإنَّمَا اتَّصَلَت مِنْ نُورِهِ بِهِـــــم
فَإنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُم كَوَاكِبُهَـــا ... يُظْهِرْنَ أنْوَارها للنَّاسِ في الظلَمِ

ثانيًا : الاستنهاض.

كان الشاعر يوجه في شعره، ويحث على الإصلاح، ويرعى أفراد أمته، ويثير فيهم روح الغيرة، ويشحذ الهمم للنهوض، حتى لا تكون الأُمَّة فريسة سهلة يستسيغها العدو المتربص.

(١) الديوان . ص ١٢٩ .

فإذا رأيناه في (القسم الأول) يعالج أدواء نفسه بطريقته الخاصة، فإننا هنا في (هذا القسم) أمام شاعر وطني غيور، يرصد شعره في كثير من الأحيان لاستنهاض أمته، وإيقاظها، لترى ما يحاك لها في الخفاء، وتصوير ما يعوق مسيرة أبنائها، ويعرقل تقدمهم ؛ لذلك احتل هذا اللون الشعري مساحة كبيرة في ديوانه.

والمتأمل في الظروف السياسية، والاجتماعية، التي عاشتها الأمة الإسلامية، في مشارق الأرض ومغاربها . في مرحلة وجود الشاعر .،يلاحظ أنها فرضت على العالم الإسلامي اتجاهين متقابلين :-

الأول :ـ ظهور التيار القومي العنصري الذي كان يقاوم فكرة الجامعة الإسلامية؛ إضافة إلى ما كان يمور به العلم الإسلامي من تحرش الدول الاستعمارية.

الثاني :ـ ظهور التيار الإسلامي المتمثل في الجماعات الإصلاحية، والأحزاب السياسية، والطوائف الساعية إلى النهوض، والتقدم في كل المجالات ؛ لاسيما مجال العلم والثقافة ؛ مما كان له عظيم الأثر في جعل الأدباء والعلماء أكثر وعيًا بهذا الواقع، وأكثر إدراكًا لمسئوليتهم نحوه. فكان الأديب يصارع الفساد والظلم، كما يصارع الفارس بسيفه الأعداء في الميدان ؛ وكان الشاعر ينظم ليبث التوعية والإصلاح، من أجل مستقبل أفضل.

ولقد كان أبو مسلم من هذه الكوكبة من العلماء والأدباء الإصلاحيين، الذين اكتظت بهم الرقعة العربية والإسلامية ؛ أمثال : محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، ونور الدين السالمي.. وغيرهم..

وكان الشعر وسيلته البارزة في أداء هذا الدور الذي اختاره، وسلك نفسه بين أقطابه. وقد سار في شعره الوطني أو الاستنهاضي، على عدة محاور من أهمها : -

١ـ استنطاق التاريخ :ـ

اتخذ أبو مسلم من التاريخ الإسلامي وسيلة لبث الروح الاستنهاضية في النفوس ؛ فالتاريخ عنده ليس افتخارًا بأيام أمته فحسب، بل هو كذلك اعتبار

ومقارنة وحث. إذ كان يقف كثيرًا عند صور البطولة والجهاد، لإحياء هذا المعنى في النفوس، لاسيما أن الصراع بين الحق والباطل في القرن الأول والثاني الهجريين، يكاد يماثل الصراع في القرن الرابع عشر الهجري، وإن اتخذ أشكالاً مختلفة وألوانًا مغايرة. فعندما يتأمل الشاعر في واقع المسلمين المتردي، المتمثل فيما أصابهم من عوامل الفُرْقَة والتحزب والتناحر، يأسى لذلك، وينفطر قلبه حزنًا وألمًا؛ ويرد هذا الأسى إلى الإمعان في بعض أحداث التاريخ الإسلامي، وجعلها وسيلة اعتبار وحث واستنهاض، على ما نراه في قوله(١) : –

غَسَلْنَ بِهِ أحْكَام سَهْمٍ وَأشعـــــر ... وَدُرْنَ مَع القُرْآنِ حَيْثُ يَـــدور
نَحَرْنَ عقيب الدَّارِ بَازِل نَاكِـــث ... وَأمْسَى بِصفين لَهُنَّ هُريـــــر
فَلَو قدرتها هاشم حقَّ قَدْرِهَـــــا ... هشمن ابن صخرٍ لِلحُروبِ صُخور
وَلَكِن وَهْيَ رَأي وخامت عزيمـــة ... فحكم خَصْم وَاستُبِيحَ نَصيـــر
بَنِي هَاشِم عمد ثللتم عروشكـــم ... وَفِي عبد شَمْسٍ نَجِدْهُ وَظهور
عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ إنكار قسطهـــم ... وللجورِ مِنْ نَفْسِ المُحِقّ نكير
- - - - - - - - - - ... - - - - - - - - - -
فَيَا لِدمَاءٍ في حروراءِ غـــودرت ... تمور، وأطباقُ السَّمَاءِ تَمور
---------- ... - - - - - - - - -
فيا أُمَّة المختارِ هل فيكِ غِيـــرَة ... فإن مُحِبّ اللهِ فيهِ غَيـــور
ويا ظهرة الإيمان هل فيك منعـة ... وهيهات عزت منعة وظهيـــر
وَيَا لرجال الله أين مُحَمَّـــــد ... وَنَاصِرهُ بِالنَّهْرَوَانِ عَقيـــر
---------- ... ----------

فالشاعر يقف طويلاً أمام وقعة صفين، ويُمعن النظر فيها مستبينًا الأحداث ؛ فيلوم من يستحق اللوم، ويعاتب من يراه جديرًا بالعتاب، ويتهم من وضحت له أسباب

(١) الديوان . ص ٢٨ ، ٢٩ .

اتهامه ؛ وينتصر لمن رآه أهلاً للانتصار. ثم يستنهض الأمة باعثًا فيها روح الغيرة على دين الله في الأرض، لتهب من غفلتها المتردية، آخذة من الأحداث التاريخية للدين الإسلامي عبرة وقدوة.

ويشير هذا الجانب من شعر الشاعر إلى مدى استيعابه تاريخ الأمة الإسلامية، والمنعطفات المؤثرة في مسار ذلك التاريخ ؛ ومواطن الانكسار، وجذور الخلاف ؛ وتكشف عن فترات القوة، وملامح التألق، ومقومات التفوق والغلبة في كثير من المواقف والمواجهات ؛

كما تظهر أنماطًا متميزة من الرجال والرؤى ؛ فاجتمع من ذلك كله مادة تضاف إلى معطيات الواقع الرديء، الذي يلح في طلب المخرج، وحتمية التجاوز.

وبعد أن أطال الشاعر التأمل في هذه العناصر مجتمعة، وَأَرَّقَهُ الأمر، وبدا مهمومًا دَوْمًا بشأن الأمة، ومن يشاركونه ويشاركهم الانتماء ؛ رأى أن عدول المسلمين المعاصرين عن سنن الإسلام ونهجه، وتضييعهم نظريته، وتخبطهم في مسارات متضاربة من أنماط السلوك والمواقف التطبيقية، هو علة رداءة ذلك الواقع ؛ فتراءى له الحل، أو سبيل الخروج والتجاوز، ماثلاً في إحياء نهج التاريخ الإسلامي، والإخلاص له؛ واستشعار الغيرة على الهوية الإسلامية، والتمسك بالنموذج الإسلامي الذي افتقد، وشوهت ملامحه بفعل أسباب عديدة... ذاتية أو غيرية([1])... ولن يكون ذلك إلا باتباع الآتي([2]) : –

تدارك وصايا الحق والصبر إنَّمَا ... يفوز مُحِقٌّ بِالفَلاحِ صَبُـــور
وَخُذ بِكِتَابِ اللهِ حَسبكَ إنَّـــهُ ... دَليلٌ مُبينٌ لِلطَّرِيقِ خَفِيـــر
فَمَا ضَلَّ مَنْ كَانَ القُرآن دَليلَـهُ ... وَمَا خَابَ مَنْ سِير القرآن يسير
تَمَسَّك بِهِ فِي حَالَةِ السخْطِ وَالرِّضَا ... وَطَهِّر بِهِ الآفَات فَهْوَ طَهُـور
وَحَارِب بِهِ الشَّيْطَانَ وَالنَّفْس تنتصر ... فَكَافِيكَ مِنْهُ عَاصِمٌ وَنَصِيـر

(١) راجع : قراءات في شعر البهلاني الرواحي / لجنة من المنتدى الأدبي . ص ٤٥ . وما بعدها .
(٢) الديوان . ص ٢٥ .

دُعيتُ لأمرٍ لَيْسَ بِالسَّهْلِ فَاجْتَهِد ... وَسَدِّد وَقَارِب وَالطَّرِيقُ مُنيـــــر
وَأسِّس عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ تَوْبَة ... نَصُوحًا عَلَى قُطْبِ الكَمَالِ تَدور
وَزِن صَالِحَ الأعْمَالِ بِالخَوْفِ وَالرَّجَا ... هُمَا جَنَّةٌ لِلصَّالِحَاتِ وســـــور
وَبِالعَدْلِ وَالإحْسَانِ قُم وَاسْتَقِم كَمَا ... أُمِرتَ وَبَادِرَ فَالمَعَاشُ قَصيـــــر
وَرَاقِب وَصَايَا اللهِ سِرًّا وَجَهْـــرَةً ... ففي كُلِّ نَفْسٍ غَفْلَة وفتـــــور

٢ـ تجسيم الواقع السيئ : ـ

إن دارس شعر أبي مسلم في الاستنهاض يجده يرصد واقع الأُمَّــة الإسلامية السيئ، ويلح في طلب المخرج حتى يعود للمسلمين ملامح تفوقهم وغلبتهم في مواقف المواجهة. وهو في سبيل ذلك يحث على العمل الإسلامي الذي يهدف إلى إرجاع مجد السلف الصالح ؛ ويدعو المسلمين إلى الفطنة إلى ما يراد بهم من دسائس الغرب الاستعماري، الذي يخطط إلى بعضها داخل الحدود ؛ والبعض الآخر يهيئ لها في الخارج ؛ على ما في قوله(١) : –

أنشرب الماء القراح ما بنـــــا ... مِنْ مَضَضٍ وَلَيْسَ بِالحَلْقِ شَجَا؟!
وَنَهْنَأُ العَيْش عَلَى أكْـــــدَارِهِ ... وَتُطْعم الأجْفَان لَذَّاتِ الكَــرَى ؟!
وَجَنْبُنَا جَنْبٌ صَدِئٌ صَاغِـــــرٌ ... وَالسَّيْفُ حَرَّان الحَشَا مِن الصَّدَى
كم نَظلم السَّيْف بِمَنْعِ حَقِّـــــهِ ... أمَا يُجَازَى ظَالِمٌ بِمَا جَنَـــــى
إنَّ السُّيوفَ طُبِعَت لِحَقِّهَـــــا ... وَحَقُّهَا تَحْكيمُهَا عَلَى الطُّلَـــى
وَالسَّيْفُ شَهْمٌ لا يفيت حقـــــهُ ... أصْدق من جد وَأكْفَى مَنْ كَفَــى
وَالسَّيْفُ حُرٌّ لا يَقِرُّ خَازِيَـــــا ... يَصُولُ إنْ ضيم، وَإنْ صَالَ اشْتَقَى
وَالسَّيْفُ لا يَرْضَى الذَّليل صَاحِبًا ... إنَّ الذَّليلَ بِالشَّنَـارِ مُكْتَـــــوَى
وَالسَّيْفُ جِلاءُ المَخَازِي آخِـــــذ ... بضبع مَنْ يُكْرِمُهُ إلى العُلَـــى
وَالسَّيْفُ مِفْتَاحٌ إذَا تَضَايَقَـــت ... عَلَى الهُمَامِ الحُرّ آرَاء النُّهَـــى

(١) الديوان . ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

وَالسَّيْفُ كَالصِّدْقِ مِنْ الرِّجَالِ مَا هَـزَزْتَـه لحظة إلا مَضَـــــــى
وَالسَّيْفُ فِي عزومِهِ مُؤيّـــــــد إنْ شد سد وَتَقَاضَى وَقَضَـــى

يستخدم الشاعر هنا الأسلوب الرمزي في كشف مواطن انكسار المسلمين،ومواضع السوء والإهمال في سلوكهم، متخذًا السيف رمزًا لهم، وهو يلح إلحاحا على هذا المعنى بتكرار لفظ السيف أكثر من ست عشرة مرة ؛ وللتكرار هنا دلالة فنية توحي بالتأكيد والتحذير، والإخطار والإصرار.

ثم يكشف الشاعر واقع المسلمين اليوم، باستخدام أسلوب الاستفهام الإنكاري، الذي يحمل دلالات معنوية بعيدة تصور مدى هوان المسلمين وتفرقهم وذلتهم. حيث يقول(١) : –

أيْنَ بَنُو الإسْلامِ مَا يُعْجِزُنَـــا وَالعِزَّةَ الكر بِحَوْمَاتِ الوَغَـــى
أيْنَ بَنُو القُرآنِ هَل ثبطكـــم كتابكم عَن الجِهَادِ لِلعِـــدَى
أيْنَ غَطَارِيفُ الجلادِ بِالظبـي أيْنَ مَشَائِيمُ الطِّعَانِ بِالقَنَـــا
أيْنَ بَنُو التَّوْحِيدِ لَو صدقتـــم توحيدكم ما رَقَصَ الشِّرْكُ عَلَى
أيْنَ بَنُو الأحْرَارِ مَا سُكنونِكُـم والملك والدين حريب والحـرى

فالشاعر يدعو إلى استنهاض الهمم، والحث على نصرة الدين والوطن، كما يدعو إلى وحدة الكلمة، والتماسك، ونبذ الخلافات التي قد تنشب بين أبناء الوطن الواحد، أو بين أبناء الأمة الواحدة..

وفي أثناء ذلك يلفت الانتباه إلى أن من بين المسلمين من يُعَدُّ أشد خطرًا على وطنه، وأمته، ودينه ؛ من الخصوم، والأعداء ؛ لا يدفعه إلى ذلك سوى الهوى، والسعي وراء عرض الدنيا(٢). كما في قوله(٣):–

(١) الديوان . ص ٣٤٧ .
(٢) راجع / قراءات في فكر البهلاني . ص ٤٧ . وما بعدها .
(٣) الديوان . ص ٣٢٩ .

وَمَا صَدْعَةُ الإسْلامِ مِنْ سَيْفِ خَصْمِهِ ... بِأعْظَمِ مِمَّا بَيْنَ أهليه وَاقِـــع

فَكَم سَيف بَاغٍ حَزَّ أوْدَاجَ دِينِهِ ... بَأفْظَعِ مِمَّا سَيف ذي الشِّرْكَ بَاخِع

هرَاشًا عَلَى الدُّنْيَا وَطَيْشًا عَلَى الهَوَى ... وذلك سُمٌّ في الحقيقة نافـــع

وما حرش الأضغان في قَلْبِ مُسْلِمٍ ... على مسلم إلا مِنْ النَّعْي وازع

فالشاعر لا يكتفي بالتنبيه إلى هذا الداء، ولكنه ـ بحسه الإسلامي ـ يشفع ذلك بتقديم الدواء الذي يعالج، هذا الداء الذي تمكن من كيان الأمة الإسلامية، حيث يرى أن السبيل إلى ذلك هو ضرورة تجاوز هذه المحنة التي تشمل كل الأقطار الإسلامية، بوحدة الرابطة بينهم، والعودة إلى النهج الإسلامي، ونبذ الأنانية، والاستعلاء عليها، بحيث تكون أمة واحدة، إذا رمت فإنما ترمي عن قوس واحدة ؛ مع الحرص على أن تجتمع في ظل الإيمان والتقوى. فيقول(١) : –

ما تنظرونَ في التماسِ طِبكم ... قد نكأ الجرح وأدنف الضَّنَـــى

لَيْسَ لهَا إلا التفاف قـــــوة ... بقوةٍ ومُقْتَدِي بِمُقْتَـــــــدَى

لَيْسَ لهَا إلا نفوس طفئـــت ... أضغانها واشتعلت فيها التُّقَى

يَلُمُّهَا الإيْمَانُ قَلْبًا وَاحِـــــدًا ... وجهته الله وحشوه الهُـــدَى

إذا رمت فقوسها واحـــــدة ... وما رَمَتْ وإنَّمَا الله رمَـــــى

وهكذا كان الشاعر يعايش هموم أمته الإسلامية في كل مكان ؛ ولم يكن إقليميًا، أو محليًا، في اتجاهه الإصلاحي الإسلامي ؛ إنما كان يُعْنَى بقضايا أمته ويتحسس آلامها ويشاركها آمالها ؛ فكان الطبيب الخبير الذي يعرف داء أمته ودواءها. ولا يتصدى الشاعر للغزو العسكري أو البشري فحسب، ولكنه يتنبه إلى نوع آخر من الغزو، يحاول به أعداء الأمة أن يحققوا كسبا في البلاد الإسلامية ؛ وذلك هو الغزو الفكري والثقافي، فيوجه شعره الاستنهاضي لإبراز هذا الخطر أمام كل مسلم حتى يقوم كل بدوره، في صد هذا العدوان الجارف. وكان التوجه العلماني

(١) الديوان . ص ٣٥٢ .

الملحد من أبرز تلك الأخطار التي واجهها، فعمل على تفنيد دعواهم الفاسقة ؛ سيما قولهم إن الأديان هي سبب التخلف. وينبه الأمة إلى ضرورة الوعي واليقظة في مواجهة هذه الدعاوى التي تسعى إلى هدم الأمة بهدم معتقدات الجماعة. على ما في قوله(١) : -

أفيقوا بني القرآن إن هداكم ... إلى الجبت والطاغوت في الذُّلِّ ضارع
أفيقوا بني القرآن إن كتابكم ... يناقض في أحكامه وينازع
تعيث قرود الجبت في سنة الهدى ... إذا عقدوا شنعاء جاءت شنائع
يعدون دين الله بهتا وهجنة ... وإن ليس من صوب الإله شرائع
وأن وقوع الدين في الأرض مفسد ... وإن قوانين السماء فظائع
وأن الذي جاءت بِهِ الرُّسلُ كُله ... مُضِر لأسبابِ الرُّقِي مُصَارِع
وَأنَّ هُدَى الإسْلامِ فِي الأرْضِ ظلمة ... وَلَو زَالَ بَانَت لِلرُّقِيِّ سَوَاطِع
وأن بني الإسلام في هَمَجِيَّة ... وُحُوشٌ تُعادِي فِي الفلاةِ أو ضَفَاضِع

(١) الديوان . ص ٣٢٧ .

ثالثًا : الغُربة والحنين.

غادر أبو مسلم وطنه عُمان إلى زنجبار ـ كما أشرنا آنفا ـ وهو دون العشرين من عمره ؛ فتعرف على بيئتين مختلفتين كل الاختلاف، من حيث الجغرافيا والتاريخ ؛ وتعايش مع جنسين مختلفين من البشر، من حيث العادات والتقاليد، والمشاعر والأحاسيس. غير أن البيئة الأولى التي شهدت استهلاله طفلاً،ورافقت تنفسه صبيًا، وملأت عينيه بمناظرها الخلابة يافعًا، هي بيئة عُمان الوطن،ومسقط الرأس؛ تلك البيئة التي ترعرع بين أحضانها، وتفيأ ظلال نخيلها ؛ وشبَّ في وديانها، وشرب من مياه أفلاجها، وملأ نظره بجبالها الشامخة وقممها المتأبية. لذلك نجده خَصَّهَا بالحضور الأكبر في شعره ؛ وتمثل ذلك تَمَثُلاً حيًّا من خلال قصائده الشعرية، فصدُقت عليه المقولة (الأديب ابن بيئته). والبيئة هنا تعني المكان المتمثل في الجبال، والوديان، والأفلاج، والسهول، والنخيل ؛ وتعني كذلك الزمان، المتمثل في التاريخ والأصالة؛ وتعني كذلك الناس الذين شبَّ بينهم، واتخذ منهم القدوة والمثل، كما استقر منهم على العادات والتقاليد، وتفيأ في ظلالهم غذاء النفس، والوجدان.

فالمدقق في شعر أبي مسلم يستشعر وطنه عُمان يتحرك برجالاته وتاريخ أبطاله، وتتجسد أمامه أحداثها ووقائعها، وقبائلها الخالدة في عمق التاريخ ؛ وماضيها، وحاضرها.

على أن الشاعر حينما يبرز هذه المعاني من أعماق التاريخ العُماني، لا يبرزها بطريقة التصوير، والعرض التقليدي ؛ كما كان الأمر عند الشاعر العربي القديم الذي كان يستبد به الحنين إلى المكان، أو يحركه التذكر ؛ فيتأثر وجدانيًّا، ويقف عند التفاصيل الجزئية من مواطن الإقامة، ومضارب الخيام، حتى باتت هذه

الطريقة بُعدًا تقليديًا معروفًا في الشعر العربي القديم، مما اصطلح عليه بالمقدمات الطلليَّة،التي تخلص إلى موضوع آخر هو مقصد الشاعر. إنما كان يصور تلك الوقفات الوجدانية وهو يذوب شوقًا وحنينًا ؛

وهذا الحنين بأبعاده المختلفة، بات من أقوى الاتجاهات في شعر أبي مسلم؛ حنين إلى عُمان . المكان . التي قُدِّر له أن يعيش أفضل سنوات حياته وأهمها بعيدًا عنها. وحنين إلى تاريخ عُمان . الزمان . الذي يرى نفسه جزءًا لا يتجزأ منه. فالحنين إلى الوطن يُفجِّر دائمًا الدموع في عينيه، كما يُفَجِّر البرق الأمطار في السحب ؛ فالوطن فقط هو الذي يدخل بؤرة اهتمامه، ولا يعنيه من أمر أرض مهجره شيئًا،لأنها ليست أرضه، ولا وطنه ؛ ويضيق بدموعه أن تُذرَف على أرض وطن ليست أرض وطنه الأصلي. فيقول([1]) : -

إنِّي أَشُّح بِدَمْعِي أنْ يَسِحَّ عَلَى	أَرْضٍ وَمَا هِيَ لِي يَا بَرْقُ أوْطَان
هبك استطرت فُؤادِي فَاسْتَطِر رَمَقِي	إلى مَعَاهِدٍ لِي فِيهِنَّ أشْجَـــان
تِلْكَ المَعَاهِدُ مَا عَهْدِي بِهَا انْتَقَلَت	وَهُنَّ وَسطَ ضَمِيرِي الآنَ سُكـان
نَأيْتُ عَنْهَا وَلَكِنْ لا أُفَارِقُهَـــا	بَلَى كَم افْتَرَقَت رُوح وَجُثْمَـــان
وَكَيْفَ أنْسَى عُهودِي فِي مَسَارِحِهَا	وَهُنَّ بَيْن جنَانِ الخُلْدِ بطنـــان
أم كَيْفَ يمكن سلْوَانِي فَضَائِلُهَا	نَعم لَدَيَّ لذا السلوان سلـــوان

إن عاطفة الحنين عند أبي مسلم جياشة تخترق المقاييس والقواعد، وتتجاوز المسافات المكانية والزمانية ؛ ليصبح البعيد قريبًا، والقريب بعيدًا. فالمسافة التي تفرق بين زنجبار وعُمان إن أثَّرت في البعد المادي للجسد ؛ فإنها لن تؤثر في البعد الوجداني للنفس؛ حتى إن المعاهد والمواطن التي يشتاق إليها في عُمان لم تبتعد عنه،لأنها ماثلة بين ناظريه ؛ وحاضرة بين حناياه، حيَّة في أعماقه.

لذلك فإن ضوء البرق إذا لاح في أفق الوطن يتحول إلى نار تلهب أحشاءه، حتى لو هطل الماء الغزير، لن تنطفئ نار الحنين ولا لهيب الشوق. حيث يقول([2]) : -

([1]) الديوان. ص ٢٩٩، ٣٠٠.
([2]) نفسه. ص ٢٩٩.

تِلْكَ البَوارِقُ حَادِيهنَّ مَرْنَـــانُ فَمَا لِطَرْفِكَ يَا ذَا الشَّجو وسنان

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

إنْ هَيَّجَ البَرْق ذَا شجو فَقَد سَهرت عَيْنِي وشبت لِشَجوِ النَّفْسِ نِيرَان

وَصَيَّرَ البَرْقُ جَفْنِي مِنْ سَحَائِبِهِ يَا بَرْق حَسْبُكَ مَا فِي الأرْض ظَمْآن

فالشاعر يُكابد لهيبًا عَظِيمًا، ويعاني ألمًا شديدًا بالنفس ؛ لأن الشوق المتأجج في أحشائه إلى وطنه، تحول إلى صلة روحية قوية، صارت مع مرور الأيام عهدًا وميثاقًا.

وإذا كان الحنين عند بعض الشعراء يتحرك إلى المكان لأغراض جزئيَّة بعضها إلى الأحبة والأهل، التي يُرْمَز إليها . على عادة العرب . بالآرام والغزلان؛ وبعضها إلى الديار، ومكان ضرب الخيام ؛فإن الذي يحرك الحنين في قلب أبي مسلم المحاسن لا الحُسن ؛ والمآثر لا الآثار؛والمعاني لا المباني؛ لأن الذي يربطه بهذا الوطن صلة روحية أسمى من أن يتمثل في طللٍ بالٍ، أو غزال أهيف. فيقول في هذا المعنى([1]) :

معاهد ساقني منها محاسنها إن شاق غيري آرام وغـــزلان

لها على القلب ميثاق يبوء به إن باء بالحبِّ في الأوطان إيمان

نَزَحْتُ عَنْهَا بِحكم لا أغالبــه لا يغلب القدر المحتوم إنسان

كأنني واغترابي والغرام بهـــا حيٌّ قضى خلفته بعد أحــزان

هي النوى جعلتني في مَحَاجِرِهَا مثل الخيال وروحي ثمَّ جثمان

أعيش في غُرْبَةٍ عيش السليم على رغمي وليس إلى الترياق إمكان

([1]) الديوان. ص ٣٠٠.

من هذا المنطلق فإن الشاعر يعيش بين طرفين متضادين ؛ الغربة القاسية على النفس من طرف ؛ وعشق الوطن من طرف آخر ؛ وهو بين الطرفين ممزق الأحشاء، لا يجد إلى الترياق سبيلاً ؛. لا سيما أنه يشعر أن الموت المحتوم يتقدم نحوه شيئًا فشيئًا ؛ وقد لا يرى معشوقه (الوطن) مرة أخرى ؛ ولا يجد لذلك شافيًا أو منقذًا.

وهكذا كان يشتاق إلى المعاهد التي ترتبط بالمآثر ؛ ويحن إلى أهل هذه المعاهد الذين تتجسم فيهم المشاعر ودفء القلوب المفعمة بالأصالة المنبثقة عن والولاء والوفاء. لذلك فهو دائم الشعور بالمرارة والقسوة ؛ لاسيما أن هؤلاء الأهل باتوا في ذمة التاريخ ؛مما جعل حنينه يتمثل في بُعْدَي المكان والزمان. فالحنين إلى المعاهد يمثل البُعد المكاني ؛ والحنين إلى ساكنيها الذين طواهم التاريخ، يمثل البُعد الزماني. وبذلك يكون حنين أبي مسلم هو حنين إلى الأرض والأمة.

وهذا يخالف الحنين عند الشعراء القدامى ؛ إذ كان الشاعر القديم يحن إلى معاهد الحبيبة التي يذكره كل حجر فيها، أو أثر بحديث في ضوء القمر، أو مناجاة عذبة في ليلة سمر ؛ فيوغلون في وصف الأشياء الجزئية الخاصة بالوجدان، وعمق الصلة العاطفية بالحبيبة الغائبة ؛ دون الوغول في الكليات الخاصة بالأرض والأمة. والشاعر كان على وعي بذلك الفرق بينه وبين أسلافه في اغترابهم. على ما في قوله(١) : -

خليلي ما تذكار ليلى لبانتي	**قامت بِنَجْدٍ أو حَوَتْهَا التَّهَائِم**
ولا ربعها العافي عليه تناوحت	**صبا ودبور، أو بَكَتهُ الغَمَائم**
تهادى به الآرام والعفر رُتعًا	**كَمَا تَتَهَادَى البَهْكَنَات النَّوَاعِم**
ولا شفني حبٌّ لغيداء كاعب	**كَمَا ارْتَاع خشف في الخميلة باغم**
ولكن شجاني معهد بان أهله	**فبان الهُدَى في إثرهم وَالمَكَارِم**
- - - - - - - - - - - -	- - - - - - - - -
هُوَ المَعْهَد المَيْمُون أرْضًا وأُمَّةً	**وَإنْ زَمْجَرَتْ لِلجُورِ حِينًا زمازم**

(١) الديوان. ص ٣١٧.

هُوَ المَعْهَدُ المَمْطُور بِالرَّحْمَةِ التي ... سقت من إمام المرسلين المراحم

سيكثر وِرَّادًا عَلَى الحَوْضِ أهلــه ... إذا جَاءَ يَوْم الحَشْرِ والكلُّ هائم

لقد صدقوا المُخْتَار مِنْ غَيْرِ رُؤيَةٍ ... وتكذيبِ جل الشاهدين مقــاوم

أولئْكَ قَوْمِي باركتهم وأرضهـــــم ... بدعوةِ خَيْر العَالمين المكــارم

فالشاعر يعلن في كل مناسبة مدى تعلقه بموطنه، وحبه الدائم لمعاهده القديمة... ولأجل ذلك ظل متابعًا نبض الأحداث في وطنه منذ لحظة خروجه منه؛ وعلى امتداد حياته في زنجبار ؛ وحينما وقع الصراع بين العُمانيين، راح الشاعر من شرق إفريقيا يبث الحمية في القبائل، ويخاطب رؤساء القوم، حاثًا على وحدة الصف خلف الإمام (سالم بن راشد الخروصي) لمواجهة الإنجليز وعملائهم. وهكذا يتجسد الحنين في شعر أبي مسلم حنينًا إلى أرض المبادئ والقيم ؛ وتَوْقًا إلى التاريخ، والأصالة ؛ وشغفاً بالنعيم الأبدي، والرضوان الخالد،والظلال الوارفة.

رابعًا : الرِّثَـــاء.

اهتم أبو مسلم بفن الرثاء، حيث أعطاه حيِّزًا من شعره ؛ لأن هذا الفن له علاقة وطيدة بمشاعره الذاتية، إذ هو . في حقيقته . تعبير عن شعور نابع من أحاسيس صادقة، متفجرة عن مشاعر الحزن لفقد أحد الأحبة.

والمتأمل في مراثي الشاعر التسع، يجدها جاءت بين عامي : (١٣٣٢هـ) – (١٩١٣م) ، (١٣٣٧هـ) – (١٩١٨م).

وأول ما يلفت الانتباه أنها تمتاز بطول النفس الشعري. حيث جاءت على النحو التالي : –

المرثيــة الأولي :ـ في قطب الأئمة (العلامة الشيخ / محمد بن يوسف أطفيش. الجزائري. ومجموعها : ثمانية وستون ومائة بيتٍ.

المرثيــة الثانيــة :ـ في قطب الأئمة، كذلك. ومجموعها : ستة وخمسون ومائة بيتٍ.

المرثية الثالثة :ـ في العلامة / نور الدين السالمي. العُماني. ومجموعها : ثمانية وستون ومائة بيتٍ.

المرثية الرابعة :ـ في العلامة / نور الدين السالمي. كذلك. ومجموعها : تسعة عشر ومائة بيتٍ.

المرثية الخامسة :ـ في العلامة الشيخ / أحمد بن سعيد. ومجموعها: اثنان وتسعون بيتًا.

المرثية السادسة : ـ في الشيخ العلامة / سالم بن أحمد الريامي. قاضي الجزيرة الخضراء،من أعمال زنجبار. المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ، وكان من أخص أصدقائه الأوفياء. ومجموعها : واحد وثلاثون ومائة بيتٍ.

المرثية السابعة :ـ في الشيخ الفقيه، فقيد الوطنية / راشد بن سليم الغيني. ومجموعها : أربعة وثمانون ومائة بيتٍ.

المرثية الثامنة :ـ في الشيخ الفقيه / راشد بن سليم الغيني . كذلك . ومجموعها : ستة وثمانون بيتًا.

المرثية التاسعة : ـ في الإمام الخليلي (محمد بن عبد الله بن سعد بن خلفان بن أحمد الخليلي). ومجموعها : سبعة وثمانون بيتًا.

والشاعر في هذا المنحى الحزين استجاب للحس الفردي، كما استجاب للحس الجماعي، وفقًا لطبيعة العلاقة بينه وبين مراثيه.

فالحس الفردي جاء تعبيرًا عن الجيشان الداخلي للشاعر، حينما يفقد أحد الأحبة من الأهل، أو الخلان.

أما التعبير عن الإحساس الجماعي، فكان استجابة لتفجر مشاعر الحزن بفقد أحد رؤوس مجتمعه ؛ أو أحد ركائز أمته ؛ ففقد أحد هؤلاء . في رأيه . يترك فراغًا في الرقعة الإسلامية كلها، وليس فراغًا في مجتمعه هو فقط.

والشاعر حينما يعبر عن حزنه لفقد أحد الرموز، فهو يعبر عن مشاعر الفراغ التي تعيشها الأمة بعد الفقيد. ويصور أساها لفقده، كما تدل على ذلك مفرداته اللغوية، إلى جانب صوره، ومعانيه الجماعية.

كما نراه في رثاء الإمام الشيخ/ محمد بن يوسف أطفيش الجزائري، أحد أقطاب الحركة الإصلاحية، والتجديد الفكريّ الإسلاميّ، لدى الإباضية شرقًا وغربًا (ت ١٣٣٧ هـ . ١٩١٨م)([1]) .

تمضي وتترك هذا الدين في جَزَعٍ ... وَالأرْض مُظْلِمَةٌ وَالدَّهْرُ فِي خَبَلِ
مَنْ لِلحَنَيفةِ باقيًا مها علـــــم ... يَهْدِي إليْهَا وَمَنْ يَحْمِي مِن الغيلِ

([1]) الديوان. ص ٣٨٨.

مَنْ لِلشَّرِيعَةِ قَد قَامَت قيامتهـــا وَمَنْ يسدد منها موضع الخلــلِ
قد كنت فيها مكان الروح في جسد وَقُمْت فيها مَقَامَ السَّيْفِ فِي الخَلَلِ
مَنْ لِلطريقَةِ مَنْ يُصفِّي مَشَارِبها للسالكين كؤوس العل والنهـــلِ
قَدْ كُنْتَ حَادِيهَا تَحْدُو رَكَائِبهـــا بنغمةٍ لحَّنَتهَا زُمْرة الرُّســـــلِ

فرثاء الشاعر ليس تعبيرًا عَمَّا يجده في نفسه فحسب، بل هو تعبير عما يمثله الفقيد من مكان ومكانة بين الدعاة الإسلاميين.

فالفقيد في رؤية الشاعر قد ترك الدين والحنيفيَّة والشريعة والطريقة في فراغ، مما ينبئ أن المصيبة في فقده عظيمة، والخسارة هائلة. وهذه كلها مدلولات تعبر عن مدى خسارة الأمة الإسلامية لهذا الإمام الجليل.

كما قد يعبر عن خسارة الأمة الإسلامية في لفظة واحدة مباشرة. كأن يقول([1]): –

يَا رَاحِلاً عن بَنِي الإسْلامِ تاركهم وللكآبة فعل السيف والأســـلِ
– – – – – – – – – – – – – – – – – – – –
فوا مصاباه إن ودَّعت مُرتحـــلاً وما وراءك للإسلام من بـــــدلِ

ويقدم الشاعر صورة أخرى لنكبته في فقد الإمام الشيخ / نور الدين السَّالمي، باعث النهضة العلمية والإصلاحية في القرن الرابع عشر من الهجرة في عُمان ؛ موضحًا مكانته في عُمان . خاصة . وفي العالم الإسلامي . عامة .. ومن ثمَّ فالمُصاب جلل، والحزن عميق في قلب كل مسلم. والشاعر هو أحد المسلمين الذين تأوّهوا حزنًا وألمًا وحسرةً على فقد هذا العلامة، الذي ترك فراغًا كبيرًا في الرقعة الإسلامية. ومما زاد هول المصاب في نفس الشاعر أنه نُكِب في صديقيه، الواحد تلو الآخر، وليس بين موتهما سوى شهور قليلة. يقول في فقد الإمام السَّالميِّ([2]) : –

يَا مَنْ أذابَ الصَّخْرَ حرُّ مُصَابِهِ مَنْ ذَا تركت لِدَوْلَةِ الأحـــــرارِ
وزَّعت بين الدين والوطن الأسى توزيعك الطاعات في الأطـــوارِ
ودعوت في الإسلام دعوة مخلص ثابتْ إليك بها ذوو الأبصـــارِ

([1]) الديوان. ص ٣٩١.
([2])نفسه. ص ٤٠٣.

ثابت إليك عصائب وهبيَّـــة ... من أسد ذي يمن وأسد نـــزارِ

- - - - - - - - - ... - - - - - - - - -

حنيت ضلوعهم على جمر الغضي ... مِن حبِّ ربِّهم وخوف النـــارِ

غضبوا لربهم فشدوا شـــدة ... متكاتفين على هدى عمـــارِ

- - - - - - - - - ... - - - - - - - - -

باعوا لمرضاة الإله نفوسهـم ... أرْبِحْ ببيعتهم ونعم الشـــاري

وانفطر يا قلب واستقصي الأسى ... إنَّ حبل الدين بالأمس انبتـــل

وهكذا كان دافع الرِّثاء عند أبي مسلم تمتزج فيه الذَّاتيَّة بالجماعيَّة؛ فتميز بصدق التجربة واتسم . في الغالب الأعم . بمسحة من الحزن الهادئ، والتفجع النفسي الصامت ؛ استجابة لتوجهه الإسلامي المؤمن بقضاء الله وقدره.

بَيْد إنه . في بعض الأحايين . لم يستطع التحكم في الزِّمام، فانطلق في صيحات عالية تردد صدى الحزن البالغ المسيطر على كيانه، المعلِن عن فداحة الحدث، لشموله الأمة في دينها وأمنها وقيمها ؛ حتى نجده يتوسل بالطلب من الفقيد أن يعود ليقي الأمة ما يتهددها بفقده، كما نراه في قوله(١): –

مهلاً همام الاستقامة ما الذي ... غادرت من هول ومن إذعارِ

قوَّمتها فتقوَّمت فهجرتهـــا ... يا هجرة طالت على السفـارِ

ارجع إليها حيث قل حُماتُها ... ارجع فديتك يا غريب الـدارِ

ارجع إلى الإسلام تَمم نصره ... فالعز تحت عزائم الأنصـــارِ

ارجع فإن الاستقامة أرملـت ... ارحم يتيمك وهو دين الباري

ارجع تشاهد كيف دمع السيف ... والعسال والأقلام والأسفـــارِ

ارجع وما ظني بأنك مشتـــر ... بجوار ربك جيرة الأشـــرارِ

فتكرار طلب الرجوع في الأبيات خمس مرات، مما يدل على عظم إحساسه بصدمة الفقد، فتتباعد المسافة بين حاله العارض هذا، وبين حاله الدائم.

(١) الديوان. ص ٤٠٢.

فالذي يحكم مسار الشاعر في مراثيه إنما هو الحدث وأبعاد آثاره في تقدير الشاعر، وتصوره من كل ما يعلن عن صدقه الفني فيما يصدر عنه في هذا الصدد، فلم يلتزم نهجًا واحدًا، ولا مسارًا ثابتًا يوشي بالتصنع، ولكنه يتردد بين الحزن الهادئ والحزن المتفجع، والحزن العاقل القائم على النصائح والعظات، والدعوة إلى التأمل لاستخراج الحكمة،واستلهام العبرة ؛ أو القائم على تعداد فضائل المرثي، وبكاء سماته ومناقبه الإيمانية ـ كما أشرنا آنفًا ـ مثل (الإيمان، والتقوى، والفضل، والعلم، والعمل الصالح) ؛ وإظهار التخوف من أثر الفراغ الذي سيتركه بموته ؛ في وقت تكون فيه الأمة الإسلامية في حاجة شديدة إليه على النحو الذي فَصَّلناه. وكما في قوله([1]) :

لقد صدعت قلبي صوادع للردى ... لهن انحدار بالأسى وصعود
ولا كمصاب القطب يوم تفطرت ... قلوب بمعناه لنا وكبـــود
فذاك لعمري صادع لا تطيقه ... جبال ولا يقوى عليه حديـد
لقد حاز نزري العمر والعمر بائد ... ولكن ما أبقاه ليس يبيـــد
مضى وله كنزان خير مقدم ... وكنز علوم للعباد عتيـــد
تخلص للعقبى وأعقب نافعًا ... من العلم يبلي الدهر وهو جديد
هنيئًا مليك العلم لاقيت صالحًا ... بما خلفه مما تركت يزيـــد

والمتأمل في مراثي البهلاني ـ في مجملها ـ يلاحظ اتسامها بالتكرار، على الرغم من تعدد القصائد، مما يدل على أنه أدرك أن الدفقة الشعرية التي قدمها في قصيدة الرِّثاء الأولى لم تكن كافية لإبراز ما يمور به وجدانه، فلجأ إلى قصيدة جديدة أخرى ؛ وتلك حالة يعرفها الشعراء، فالآفاق التي تتفتح أمام الشاعر في بداية الميلاد الشعري ؛ لا يتم استنفادها جميعًا في القصيدة الواحدة، وغالبًا ما يختتم قصيدته على نبة العودة إليها ؛ وإن كانت لحظات اليقظة التالية بعد الميلاد ما تبتعد شيئًا فشيئًا، ببقايا اللحظة الشعرية؛ غير أن بعض الشعراء يستطيعون المحافظة على ذلك الموقف حتى تتشكل قصيدة جديدة، وذلك ما يؤدي إلى وجود ظاهرة التكرار في معالجة الموقف الواحد، في أكثر من قصيدة([2]) .

([1]) الديوان. ص ٣٩٤، ٣٩٥.
([2]) راجع قراءات في فكر البهلاني : ص ٣٣. وما بعدها .

وإذا كانت شخصية الفقيه تبدو في هذا الجانب من القصيدة ؛ فإن شخصية الشاعر ما تلبث أن تتوازن معها في بقية أجزاء القصيدة من خلال حُسن السيطرة على الشكل الفني ومضمونه، حيث تتوازن عناصر السرد، وعناصر الإنشاء، وتمتزج في بوتقة واحدة، فالسرد يتمثل في رصد مآثر تاريخية خاصة للمرثي، وتلوينها بلون وجداني ؛ وللشاعر وسائل فنية في هذا التلوين من أهمها : -

١- التجريد الحواري : -

يأخذ التجريد الحواري أشكالاً متعددة في قصيدة الرِّثاء عند أبي مسلم ؛ فقد يجئ في صورة حوار بين الغائب الجمع، والمفرد المتكلم. مثل([1]) : -

قالوا دسائسها في طي زخرفها وقلت قد صرحت بالسم في العسلِ

لم تُخف عيبًا ولم تأخذ مخالسة ولا الهناء بها إلا على علـــلِ

وقد يتحول المتكلم إلى صوت جماعي. مثل([2]) : -

حتى متى نحن والآجال تحفزنا والجد والهزل منا تابع الأمـــلِ

وقد يتحول المخاطب إلى صورة المثنى على الطريقة الشائعة في الشعر العربي القديم. مثل قوله([3]) : -

خليلي دُلاني على جزء خطوة خطونا ومن بُعد المُضي تعـــود

خُذا بيدي نحو المنازل إذ خَوَت عساها بخبر الظاعنين همـــود

كما استخدم الشاعر صيغ الحوار المستحيلة ليستثير المناخ الشعري. مثل خطابه السَّالميّ بعد موته، والذي يقول فيه([4]) : -

ارجع وما ظني بأنك مشتـــــر بجوار ربك جيرة الأشـــــرار

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

([1]) الديوان. ص ٣٨٥.
([2]) نفسه. ص ٣٨٦.
([3]) نفســه. ص ٣٩٣.
([4]) نفســه. ص ٤٠٧.

أدعوك للأمر الذي تدعي لـــه شيم الرجال وهِمَّة الأحـــــرار

- - - - - - - - - - - -

أدعوك إن كنت السميع لدعوتي لخطابه التبشير والإنـــــذار

- - - - - - - - - - - -

هيهات يا أسفاه لا رجعى وقـــد جثمت عليك صحائف الأحجـار

فالحوار ينتقل في سلاسة بين عالم الأماني، وعالم المستحيلات، مما يعكس حوارية البقاء والفناء.

فالشاعر هنا يسمح بتبادل الصفات، لأناس رحلوا، لكنهم باقون، وهذا ما يدفعه إلى ألا يكتفي بخلع صفات الأحياء على أولئك الراحلين ؛ لكنه قد يختار أكثرها حيوية ، مثل صفة السباحة، وصفة الطيران ؛ فيخلعها عليهم إيحاءً بأن رحيلهم كان تخلصًا من القيود.

٢ – التاريخ بالشعر : ▪

كان استخدام التاريخ بالشعر سمة من سمات صنعة العصور الوسطى في الشعر العربي ؛ وكانت تعمد إلى إثبات جمل تعبر حروف كلماتها عن سَنَةِ الحدث إذا تُرجمت إلى أرقام. مثل قول البهلاني([1]) : –

تاريخها ما طال ما لحب الردى الصبر أحرى يا أولي الأبصار

فمعنى هذا البيت إذا ترجم إلى حساب الأرقام يعادل سنة (اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة) وهو تاريخ وفاة المرثي (السالمي).

وفي مرثية القطب قال([2]) : –

ألا في ربيع الآخر الحزن فاحسبوا فهذا لتأريخ الوفاة مفيـــــد

فهذا البيت يعطي بحساب الأرقام ؛ الوقت الذي رحل فيه العالمان معًا ؛ (قطب الأئمة، ونور الدين السَّالميّ).

٣ – التكـــرار الفـــني : ▪ والتكرار الفني يمثل واحدة من أبرز الخصائص التي يتكئ عليها أبو مسلم لمحاولة إبراز المحاور العاطفية الرئيسة في

([1]) الديوان. ص ٤٠٦.
([2]) نفســه. ص ٣٩٨.

عمل مطول مثل مرثياته، وهو يستخدمه في إحكام في كثير من أغراض بناء القصيدة. فقد يأتي التكرار لكي يبني عمق المأساة، ولكي يستنفر شرائح بعينها يريدها أن تلتفت إلى صدى أحاسيسه([1]) كما جاء في قوله([2]): –

يا رجال الدين هل جاءكـــــم	أن بدر الدين في الأرض أفل
يا رجال الدين لا تهنأ لكـــــم	فرصة إن مصاب الدهر حل
يا رجال الدين لم ينزل بنـــــا	فادح أعظم مما قد نـــــزل
يا رجال الدين أهلاً بالقضـــــا	غاض هذا البحر واندك الجبل
يا رجال الدين ما هذا الأســـى	والأسى بالعقل، والعقل ذهل
يا رجال الدين ما حُسن العـــزا	عن فقيد في السما والأرض جل

وقد يأتي التكرار لكي ينتقل به ومعه من مرحلة الانفعال العاطفي، إلى مرحلة سرد المآثر. كما في قوله([3]) : –

تقارع الزيغ والأنوار بارقـــــة	وأنت في نجدة والخصم في فشلِ
كم حجة بسطة بالبطل أيديهـــا	صدعت بالحق فيها فهي في شللِ
كم مشكل أعجز الأفكار جئت به	صديعة الفجر نوراً واضح السُّبلِ
كم معضل كشفته منك معرفـــة	ذات انبساط بنور الله مشتعلِ
كم قاطع في سبيل الله يمنعهـــا	رميته بشهاب منك مختـــزلِ
كم جاهل ملأت ضوءاً بصيرتـــه	بصيرة لك تدعي الشمس بالعملِ

٤ – الدُّعاء : ■

والدعاء من الخصائص التي يعتمد عليها أبو مسلم في الغالب الأعم من قصائده، لاسيما الرثاء ؛ وذلك لأن الدعاء من العناصر التي تُبرز صدق العاطفة. ويتمثل ذلك في تلك النسمة الهادئة التي تهب على أعجاز القصائد. مثل قوله في رثاء القطب([4]) : –

([1]) راجع هذه الخصائص في: قراءات في فكر البهلاني الرواحي : ص ٣٣ بتصرف.
([2]) الديوان : ص ٤٠٦.
([3]) الديوان. ص ٣٨٨.
([4]) نفســه. ص ٣٩١.

سقى لا الإله ربوع الزاب ماطرة ... من رحمة الله بالأبكار والأُصُل

وباشرتك هبَّات الله دائبـــــة ... بعارض من عظيم الفضل منهطل

وروح الله بالرضوان روحك في ... منازل القرب والإسعاد والنـزل

وواصل الروح والريحان ذاتك في ... أزكى سلام من الرحمن منهمل

وتشعر بالنسمات الدعائية الرقيقة نفسها في قوله(١) : –

قدَّست من غوث وقدس مشهدًا ... غبطته فيك عوالم الأنـــــوار

– – – – – – – – – – ... – – – – – – – – – –

يا وافد الرحمن أيّ كرامـــــة ... لقيت في عدن وأيّ جـــــوار؟

بمنازل الشهداء ترتع آمنًـــا ... حتى رضيت لخوفنا الكـــرار

حلَّقت للطاعات خطفة طائـــر ... فحللت مسرح جعفر الطيـــار

هذه هي أهم الخصائص التي اعتمد عليها أبو مسلم في قصيدة الرثاء؛ وهي نفسها خصائص الرثاء عند عقيدة الشُّراة التي تعتمد على آهات الحزن الصادق، ودموع الأسى الصامتة التي تتسم بصبر الإيمان، والاعتزاز بالشهادة ؛ والتشوق إلى الظفر بها.

كما إن الرثاء عندهم نوع من الفخر بمناقب الفقيد ؛ والاعتزاز بالموت في ميدان الجهاد في الدنيا ؛ فالشُّراة عندما يَرْثُون يبكون بكاء الأقوياء، ويذرفون الدمع ليسكبوا الدم، ويبكون الميت ليتشجع الحيُّ ؛ ويقدمون المفقود ليتركوا المثل الأعلى للموجود.

فلا غرو إذن حينما نجد الرِّثاء عند أبي مسلم يتسم بتلك السمات؛ وهو على الطريق نفسه سار، وعلى الدرب ذاته نهج.

* * * * * * * * * * * * * * *

(١) الديوان. ص ٤٠٥، ٤٠٦.

خَامِسًا : الحكمـــــة.

الحكمة قول بليغ موجز تُكَثَّف فيه القيم الخلقية، وخلاصة التجارب الإنسانية المنبثقة عن ما يقبله الناس من خصال وسلوك، أو ما ينكرونه من أفعال وعادات، تُصاغ في عبارة شعرية، أو نثرية موجزة، تشي بما تحمل من دلالات([1]). فالحكمة . في مجملها . معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ؛ ويُقال لمن يُحسن دقائق الصناعات ويتقنها "حكيم "، أي : عالم. والحُكْمُ والحكمة من العلم. وقد ورد في الحديث الشريف : (... إنَّ من الشعر حِكَمًا.). ويُروى : (لحِكْمَةً). أي : كَلامًا نافعًا يمنع من الجهل والسَّفه، ويُنهي عنهما، ويُقال: أراد بها المواعظ التي ينتفع بها الناس([2]). وهي . كذلك . من أكثر الأنواع الأدبية استيعابًا للفنيَّة الجمالية؛ لأنها مزيج من عقل وشعور، وموضوعية، وذاتية.

موضوعية في أساس الفكرة،ومنطلقها من الوجود الواقعي المحسوس ؛ وذاتية في إخراجها بالصور، وتلوينها بألوان الخيال والتصوير([3]).

وهي صالحة في كل زمان ومكان ؛ وليس بالضرورة أن تكون صادرة عن حادثة ما، أو مناسبة ما، لأنها تصدر عن تجربة وخبرة. وقد عَرِف الشعر العربي منذ القِدَم العديد من الشعراء الذين اشتهروا بالحكمة في شعرهم ؛ منهم : زهير بن أبي سُلْمَى ؛ ولبيد بن أبي ربيعة، وطرفة بن العبد. في الجاهلية.

وعُرِفَ المتنبي، وأبو تمام، والمعري. في العصر العباسي.

وعَرف العصر الحديث . كذلك . العديد من الشعراء الذين ينحون هذا المنحى مثل حافظ، والرصافي،.. وغيرهم...

ويتصل شعر الحكمة عند البهلاني بالتوجه الإسلامي اتصالاً وثيقًا؛ حيث تدور معظم مضامين الحكمة عنده حول التنبه إلى طبيعة الأيام،وتقلبات الدهر؛ ووجوب عدم الاكتراث به، أو استشعار الآمان لهما ؛ وحُسن التجلد لصروفهما. ويقوده ذلك إلى ذم ماديات الدنيا الفانية، وبيان غَدَراتها،والتَّزَهُّد فيها، وفيما تمنحه من مال ونفوذ،وضرورة حمد الله على عطائه في الخير والشر. كما في قوله([4]) : –

([1]) راجع الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه : د/ يحيى الجبوري. ص ٤٠٣. مؤسسة الرسالـــة. ط الرابعة. بيروت. ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
([2]) لسان العرب : لابن منظور. مادة "حكم".
([3]) راجع : الفن والأدب : د/ ميشال عاصي. ص ١١٤. مؤسسة نوفل. ط الثالثة. بيروت ١٩٨٠م.
([4]) الديوان. ص ٣٧٤.

ماذا تريد من الدنيا تعانيهـــا	أما ترى كيف تفنيها عواديها؟
غدَّارة ما وفَّت عهداً وإن وعدت	خانت وإن سالمت فالحرب توريها
ما خالصتك وإن لانت ملامسها	ولا اطمأن إلى صدق مصافيها
سحر ومكر وأحزان نضاراتهـــا	فاحذر إذا خالست مكراً وتمويها
وانفر فديتك عنها إنها فتـــن	وإن دعتك وإن زانت دعاويهـا
كذابة في دعاويها منافقـــة	والشاهدات على قولي معانيها

فالشاعر يقف وقفات تأملية حكيمة في الدنيا وتقلباتها، لا سيما حين تجذبه خواطره إلى ذكر الدنيا ومكانتها في نفس المؤمن، وكيف ينبغي أن يعاملها. مستخدمًا الأسلوب الاستفهامي الإنكاري في التحذير من تفانيها وعواديها ؛ فهي غدَّارة خائنة، ما وفَّت عهدًا قط ؛ وهي كاذبة في دعاويها، ماكرة في تمنِّيها، تميل إلى النفاق والرياء.

ومن معانيه في هذا المجال، النصح بالتدبر في حقائق الأمور، وتجاوز قشرتها السطحية،لأن كل شدَّة قد تنطوي على رخاء؛على ما في قوله([1]) : –

فاجعل همومك في الصلاة فإنها	سبب مبين للصلات وللبشـــر
واحفظ لربك روحها وحياتهـــا	سيان لو أبصرت ميتًا والحجر
وحياتها إخلاصها وخشوعهـــا	وخضوع قلب بالعلائق محتظر
وظواهر الأركان محض وسائط	فإذا تزكى السر أصلح ما ظهر
– – – – – – – – –	– – – – – – – – –
فاربط على هذا المقام القلب لا	يغرر فشأن قلوبنا كر وفـــــر
– – – – – – – – –	– – – – – – – – –
واصل مقامك في الصلاة وغيرها	عبداً على الإحسان وردك والصدر
وإذا ذَكَرت الله فاعرف قـــدره	بين الرجا والخوف مصروف الفكر

فالشاعر يلفت النظر إلى ضرورة توجيه الطاقات إلى الحرص على المحامد والمكارم، ونُشدان الفضل، وتحري نقاء السرائر وتطهيرها، ومفارقة الهوى، والحذر

([1])نفســه. ص ٣٧٣، ٣٧٤.

من عقاب الآخرة، وحُسن التأهب للقاء الموت، والمبادرة بالتوبة، وحُسن إقامة الفروض التي افترضها الله علينا، خاصة الصلاة.

ولأبي مسلم سبحات تأملية حكيمة في الدنيا وأحوالها وتقلباتها، توحي بخيرة واسعة، وتجربة حياتية عميقة. لذلك نجده كثير الولوج إلى موضوع الموت والفناء المحتم،باعتبار أن ذلك من الحقائق الحتمية التي طالما تجاهلها الناس، واستقبلوها دون تأمل أو تدقيق. فالفناء . في رأيه . يوحي للبشر بحقيقتهم الضعيفة التي طالما قهرها الموت وقضى عليها، ومع ذلك فالإنسان لا يعتبر، ولا يتعظ ؛ على ما في قوله([1]) : -

عش ما تشاء وراقب فجعة الأجل ... سينقضي العمر في بطء وفي عجل
تلهو بتصويرك الآمال مغتبطًا ... وبين جنبيك ما يُلهي عن الأمل
تناقلتك ليال غير راجعة ... وما تجاهك يوم غير منتقل
ماذا يفرك من دنيا نضارتها ... نهب المنون ومجراها إلى الزلل
قالوا دسائسها في طي زخرفها ... وقلت قد صرَّحت بالسم في عسل
لم تخف عيبًا ولم تاخذ مغالسة ... ولا الهناء بها إلا على علل

فالشاعر يشير إلى أن الدنيا لم تُخْف طبيعتها عن الناس قط ؛ فالعيب إذن ليس فيها، إنما العيب في الإنسان الذي يأمن جانبها، ويعتقد أن السعادة في أحضانها، فينجذب إليها رغم علمه بحقيقتها.

وهكذا كان أبو مسلم من الشعراء الذين دفعهم زهدهم في الحياة الدنيا إلى التأمل الدائم في حقيقة الحياة والموت، حيث عُرِف بالنزعة التصوفية الزاهدة، حتى غدا هذا الاتجاه في شعره أكثر دلالة على شخصيته.

لقد عُرف شاعرنا بأنه من أصحاب الطموح الكبير،والتطلع إلى الأفضل، بصراعه الدائم مع خطوب الدهر. وقارئ شعره يلحظ كثرة تصوير هذا الصراع الدائم، فلا تكاد تخلو منه صفحة من صفحات الديوان. فهو كثير العناية بهذا الأمر الذي تميل إليه نفسه ؛ فيعبر عن ذلك بالدهر أحيانًا، وأحيانًا أخرى بالليالي، وأحيانًا ثالثةً بالأيام، وغير ذلك من الألفاظ التي تحمل المضمون نفسه.. على ما أشرنا إليه آنفًا . وعلى ما في قوله([2]) : -

([1]) الديوان. ص ٣٨٥.
([2]) الديوان. ص ٣٦٣، ٣٦٤ . وراجع كذلك : ص ٣٦٠.

خليلي شأن الدهر بين مُشَتَّت ... فما أُلفة الاثنين إلا اعتنا بها
ولولا ولوع الدهر بالبين لم تزل ... يتيمة هذا البحر تحت عبابها
ولا رجعت فوق الفنون حنينها ... هتوف شجتها مثلها بغيابها(١)
ولا خليت دور الفضائل والتُّقى ... وطارت أعاصير الفنا بصاحبها

فالديوان يكتظ بتصوير هذا الصراع الدائم مع الدهر ؛ مما يؤكد احتكاكه المستمر بخطوبه، واكتسابه معرفة قوية بكيفية التعامل معه وهو على هذه الهيئة. في هذا المضمون يقول أبو مسلم(٢) : –

كأنَّ فضليَ في عين الزمان قَذى ... لقد درى أنه في عينه كحـــلُ
كأنَّ همِّي سهم في مقاتلـــه ... ومذهبي في العُلى في رجله كَبَلُ
إذا نشَط لحقي في العُلى عَرَضَتْ ... أمام عزمي في أعراضه عِلَــلُ
لا أجتني خِطةً إلا مُخَالسَــةً ... ودون إتمامها الأهوال تَشتعلُ
– – – – – – – – – – ... – – – – – – – – – –
أقول للدهر أرسلها العراكَ فإنْ ... أجزع لخطتها فالويلُ والهَبَـــلُ
– – – – – – – – – ... – – – – – – – – –
وهات كأسَكَ إن صابًا وإن عَسَلاً ... فقد تساوى لديّ الصابُ والعَسَلُ
لا آمَنُ الدهر في لينٍ وفي شَثٍ ... وطبعه للوفا ينفصه الهيابَةُ الوكلُ
– – – – – – – – – – ... – – – – – – – – – –
ولست أرتاد ماءً ما به كَـــدَرٌ ... إلا إذا كانَ دَهري ما به دغلُ
– – – – – – – – – ... – – – – – – – – –
مَنْ يُعطه الله فيما نفسه كرهَتْ ... صبراً ما كرهَتْ بالخَيْرِ مشتملُ
– – – – – – – – – ... – – – – – – – – –
أصبحتُ والدهر من بُغي بهِ جَرَبٌ ... آسية نبلاً وما ينفك يأتكـــلُ

(١) الفنون . أغصان الشجر. هتوف : الحمام.
(٢) الديوان. ص ٣٦٨، ٣٦٩.

وهكذا كان صراع الشاعر مع الدهر يشكل نوعًا من الاعتزاز بالنفس والثقة بها ؛ وقد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى، أن هذا النوع من الاعتزاز ادعاءً وغرورًا ؛ ولكن مع التأمل الدقيق يتضح أنه اعتزاز المؤمن بربه، المُقر بضعفه، المستجير دومًا بنصرته ؛ وتلك سمة تصدر عن عقيدة إسلامية صافية في كل ما يفكر، وكل ما يفعل. وهي نفسها سمة الفخر عند شعراء الفقهاء الذين ينحون منحًا تهذيبيًا ؛ ويمثل الاعتزاز بالعلم والهمة العالية، والخلق الكريم([1]). فبات من الشعر الحِكمي والوعظي الذي من شأنه أن يأخذ طريقه بقوة إلى وجدان المتلقي ؛ مما جعله يُسهم بنصيب كبير في تحقيق درجة عالية من الشيوع وحُسن التلقي.

**** **** ****

سادسًا : موضوعات شعرية أخرى.

وديوان أبي مسلم يضم إلى هذه المضامين التي سبق ذكرها، مضامينًا شعرية أخرى، لكنها لم تكن مماثلة لما تقدم في عدد الكمي للقصائد، وطول النفس ؛ فرأينا أن نُجمل الحديث عنها مجتمعة في مبحثٍ واحد، حرصًا على التناسب الكمي بين المباحث.

١ـ الإخوانيات والمناسبات

إن السلوك الإنساني هو الذي دفع بابي مسلم إلى أن يكون له حضور فيما يحيط به من أحداث قريبة أو بعيدة تتعلق بمواطنيه، أو بني لغته، أو بني دينه. وكان طبيعيًا أن يتابع الأحداث الكبرى في العالم الإسلامي، وتكون له مشاركاته . كما أشرنا آنفًا .

كانت المناسبة لديه سبيلاً إلى أداء رسالة إنسانية، ووطنية جعلها وكده وهمَّه، وأمانة يحرص على أدائها لمن ينتمي إليهم من أبناء العروبة والإسلام. لا سيما إنه كان اجتماعيًا يشارك إخوانه وأهله في مناسباتهم وأفراحهم وأتراحهم ؛ فتجده مواصلاً وزائرًا ومعاتبًا على التقصير الذي يُقابل به أحيانًا من بعض الإخوان والأخلاء ؛ ولا يكاد يترك الاجتماعات العلمية والأدبية ؛ لأنه يرى فيها تأثيرًا روحيًا له

([1]) لمزيد من متابعة هذا المنحى. راجع : أدب الفقهاء : د/ عبد الله كنون. ص ٢٠ وما بعدها. الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٨٤م.

فاعليته في النفوس ؛ ففي مثل هذه اللقاءات والمنتديات تُقتنص الحِكم وتُكْتَسب، ويرقى الكمال العلمي والسلوكي.

فالإنسان ـ في رأيه ـ يُفيد علومًا شتى منقولة ومعقولة، من التحاور والتفاعل مع الآخرين ؛ لا بالانفراد والانطواء دون المجتمع، وأصحاب العلم والثقافة فذلك لا يفيد شيئًا. على ما في قوله([1]) : –

إن الاجتماع رَوحًا لطيفًـــا ... فاعلاً في النفوس كل جميـــلِ
قَلَّما يكسب انفرادكَ فضـــلاً ... ومع الاجتماع غرسُ العقـــولِ
أدب، حكمة، كمال، دعاء ... واقتناص المنقول والمعقـــولِ

والشاعر لذلك كان حريصًا على حضور الأمسيات العلمية التي تُطرح فيها القضايا الثقافية ؛ خاصة الأدبية ؛ التي تُقطف فيها ثمار الأدب وأزهاره ؛ حيث يقول مصورًا هذه الليالي المؤنسة([2]) : –

رعى الله ليلة أُنسٍ جلـــت ... بها، وحُسنًا كَبَدْرِ التَّمَـــام
فكانت لنا غُرةً في الزمـــان ... وكانت على صورةٍ كالوســـام
من الأدب الغض أجني بهـا ... زهورًا سقاها نميرُ الغمـــام
أُطارح فيها كما أشتهـــي ... كرام السراة، سراة الكـــلام
فطورًا من اللؤلؤ الرطب أجـ ... ـني ثثارًا، وطورًا عقود النظام
ينادي كريم نبيل الأصـــول ... طويل الأيادي عليَّ المقـــام
يباشر أصحابه بالربيـــع ... من الخُلق الرحب، خُلق الكرام
تذكرت ما بيننا قد مضـــى ... وليس لعيشٍ سعيـــدٍ دوام
فلا زال ناديكم ناعمًـــا ... من السعد في نضرة وابتســـام
فيا ليلة الوصل دومي لنـــا ... فأنت السلام عليك الســـلام

٢ـ الدُّعابة والفكاهة

([1]) الديوان. ص ٤٩٧.
([2])نفســه. ص ٤٩٥.

ومن طريف الدُّعابة لديه أبيات يُجيب فيها على فتوى حل القُبلة وتحريمها على الصب المُستهام. حيث يقول(١) : –

ما على المُستهام إثم بهـــذا وأرى الإثم راجعًا للحبيـــــب
هيمان العشاق نوع جنـــون ومناط التكليف عند القلـــوب
مكنوني أعض منه كما شئت وخلوا بيني وبين الذنـــــوب

كما توجد أبيات في مجال الدُّعابة والفكاهة يمدح بها مشروب الشاهي (الشاي)، الذي كان مشروبًا جديدًا على البيئات العربية آنذاك،فنجد الشاعر مفتونًا به، يحله من نفسه محل الخمر من نفس الشاعر العربي القديم. فيقول مُزَيِّلاً هذا البيت(٢) : –

إذا حرَّم الله المدام فإنـــــه أتى ذلك التحريم من حكمة الله

* * * * * * * *

وقام شراب الشَّاهي عنها خليفة على عالم الأرواح كالآمر الناهي
له الفضل في لون وريح ولذة فقل ما شئت من جانب الجاهِ
ذناب من الياقوت في وسط كوكب به خرج الهموم بل متعة اللاهي
إذا صفقت أكوابه وسط مجلس رأيت نجوم الزهر تهوي لأفواهِ
أرى كل ما تحوي مجالس أُنسنا جنودًا لدفع الهمِّ سلطانها الشَّاهي

فالأبيات تصور لنا شيئًا من المناسبات الاجتماعية التي كانت تزهو بها الحياة في زنجبار ؛ من خلال تصوير الشَّاهي، المشروب المعروف، وكيفية احتسائه.

(١) الديوان. ص ٤٩٧.
(٢) نفســه. ص ٤٩٤.

٣ ـ الغـــزل

والمتأمل في ديوان أبي مسلم يجد أن فن الغزل لا يُشكل غرضًا شعريًا معدودًا في شعره ؛ إذ جاء من خلال مقطوعات قليلة، لا يشعر الدارس أنها ثمرة تجربة وجدانية حَقَّة، بقدر ما يشعر أنها نوع من مُجاراة الشعراء القُدامى ؛ أو هي تنفيس عن جانب إنساني، من تكوين إنسان سوي، قد يرى حسناء تستلفته، أو يسمع صوتًا أنثويًا رقيقًا يروقه.

وبين هذا وذاك دارت مضامينه في هذا المجال ؛ حيث يقرر حينًا أن ليس في الحب قياس ؛ من خلال عتاب العاذل، وطلب ترك الملام. حيث يقول(١) : –

أيها العاذل ذرها تنهمـــــي ... تلك أحشائي فدعها تتقـــــد
لا تظن الحب شيئًا هيِّنًـــــا ... ليس في الحب قياس يطـــــرد
أنت خلو وأنا صب شـــــجٍ ... فإذا حدَّثت عني قُـــــل وَزِد
فاترك اليوم ملامي إنـــــه ... ترك الشيء إذا ما لم يفـــــد
أنا أسلو عن حبيبي ساعـــة ... يا عذولي "قل هو الله أحـــد"

وفي مقطوعة أخرى يصور جمال المحبوبة، الذي يبدو له دومًا ساحر الطرف ؛ فوجهه قمري ؛ وشعره فاحم، وخصره ناحل، وقده مائس، وأردافه مكتنزة. على ما في قوله(٢) : –

ساحر الطرف، سقيم جفنـــه ... قمريُّ الوجه، ليليُّ الشَّعـــرِ
ناحل الخصر، ثقيل ردفـــه ... مائس القد، رديني الخصـــرِ
نافر عني، وقلبي سكنـــه ... صفوة الود، إذا قال غـــدرِ
– – – – – – – – – ... – – – – – – – – –
طول ليلي وصله منتظـــر ... ليلة من وصله ألف شهـــرِ

(١) الديوان. ص ٤٩١.
(٢)نفســه. ص ٤٩١.

وهكذا يتضح شعر أبي مسلم الغزلي، بالروح القديم، في قوة وجلاء، لا سيما في استخدام الألفاظ المُعبِّرة عن مضامين الشعراء القُدامى في هذا الصدد. حيث يقول([1]) : –

لا قضيت الربع من نفسي حقوقه ... إن عقيق الدمع لم يرو عقيقة
نصبت نفسي مجازًا في الهوى ... ولدى آرامها تلك الحقيقـــــة
أمسك السير فذي أطلالهـــم ... مسكها أهدى لي الريح فتيقــة
ريثما أنشد ظبيًا ضاع فـــي ... هذه الدمية لا يدري طريقـــه

([1]) الديوان. ص ٤٩٢.

٤ ـ شعر المديح

غنيٌّ عن البيان أن فن المدح من فنون الشعر القديمة والعريقة معًا ؛ نشأ في كنف التغني بالصفات الماجدة، والأخلاق الرفيعة،والعادات الحميدة، كما نشأ في ظلال الحاجة أيضًا.

وتلك أمور قديمة في حياتنا العربية، منذ استقرار الكيان الاجتماعي في العصر الجاهلي ؛ فلا عجب أن يكون واحدًا من الألحان العبقرية التي ترنمت بها قيثارة الشعر على مر العصور والأجيال.

وقد كان للمدح مظاهر شتى منها : الثناء والإكبار والاحترام لشخص نال الإعجاب والمحبة، فوجدت الإشادة بذكره، أو أنه كان كريمًا فأعطى من يُسْرِ رزقه وسعة مُلكه، ذلك العطاء السَّخي الذي يجذب الناس. كل ذلك يُحرك أريحية الشعراء، ويثير خيالهم، فيتمخض عن ذلك شعر يهز أوتار القلوب.

لذلك لا عجب في أن تتحرك أريحية شاعرنا من أجل الثناء والإكبار والاحترام لأشخاص بأعينهم، فكان فن المديح عنده مظهرًا من مظاهر علاقاته الاجتماعية، وصورة لرؤيته الإنسانية ؛ حيث يمدح في الشخص صفات عامة يحرص عليها كل مسلم، ويعتز بها كل مجتمع المسلمين.

فنراه في مدائحه يبرز من الشمائل حسن التقدير، لينسحب ذلك على مواقف العامة والخاصة، وأولي الأمر من الأئمة والحكام المسئولين عن شئون المسلمين ومصالحهم. كما ينسحب ذلك على كِتَاب عِلمٍ له فائدته، فيُعَلي من قدره، ويُقَدِّر الجهد المبذول فيه. على ما في قوله في مدح كتاب المنهل وتقريظه([1]) : –

جامع من ذخائر العلم والحكـ ـمة ذُخرًا يَبْقى ليوم المعـادِ
حاصر من معارف القوم ما يفـ ـتح للسَالكين بابَ المُرادِ
وَلعت بانتشاره مكـة الله لتسري أنواره في البـلادِ
فادارت عليهِ من فلك الطبـ ـع نجوم التوفيق والإسعـادِ
جاء تاريخ طبعه ضمن بيتٍ كان تاجًا لمفرق الإنشـادِ
سلسبيل مزاجه زنجبيـل فاشربوه "بمنهل الـوارِدِ"

([1]) الديوان. ص ٤٤٧.

وهكذا تناول أبو مسلم كثيرًا من الموضوعات الفنية في شعره وفق الحاجة الداعية إلى كل موضوع ؛ ويلفتنا في هذا المجال وضوح مقدرته على المزج الكُلِّي بين الشكل والمضمون ؛ فهو لا يعرض التاريخ أحداثًا ووقائع جامدة، ولا يذكر القبائل العُمانية وقُراها أسماء تتوالى فقط دون رابط فني ؛ وإنما كان يصب ذلك كله في صور فنية متحركة نابضة بالحياة، متوثبة بالمشاعر ؛ فيشعر المتلقي بالعاطفة الصادقة بارزة في كل صورة يرسمها ؛ حتى بات شاعرًا شموليًا من الناحية الفنية. على ما قرره الدكتور أحمد درويش في قوله : " إنه ـ فيما نعتقد ـ كان شاعرًا فقيهًا، أو شاعرًا مؤرخًا، أو شاعرًا نَسَّابة، أو شاعرًا متحمِّسًا لفكرة وطنية ؛ ولم يكن فقيهًا يلجأ إلى الشعر ليصب فيه أراءه، أو عالمًا بالتاريخ والأنساب يُقدم للناس فكرته في شكل منظوم، أو متحمِّسًا لأفكار قومية يستعين بموسيقى الشعر على جمع القلوب حولها ؛ لكنه قبل كل شئ شاعرًا سلط بصيرته الشعرية على حقول مختلفة، فأكسبتها كثير من لون الربيع الشعري ومناخه....([1])

وتجدر الإشارة إلى أن هجرة الشاعر إلى زنجبار كان لها عظيم الأثر في إكساب شعره ألوانًا جديدة ؛ فقد انتقل من اللون الصحراوي الذي تَغْلُب عليه الصفرة، ووحشة الجدب إلى اللون الأخضر الذي يبعث البهجة في النفوس.

كما كان لشعوره بالغربة القاتلة، والحنين إلى الوطن الأم، عظيم الأثر في اكتساب لغته الشعرية حيوية وتجددًا. مع محافظته على الأصول التي غَزَّت شعره ؛ مثل القرآن الكريم، والتراث العربي القديم ـ على ما سيأتي بالتفصيل بإذن الله تعالى ..

([1]) مدخل إلى دراسة الأدب في عُمان. د/ أحمد درويش. ص ١٥٥.

الفصل الثاني

للمنظرات فنيَّةلله

تقوم التجربة الشعرية على حدث كوني،أو مشهد من مشاهد الطبيعة، أو حدث من أحداث الحياة اجتماعيًا كان أو سياسيًا، أو يمر الشاعر بحالة نفسية له أو لغيره، وقد يتعرض لمشكلة عامة، يلتقط منها شيئًا بعين البصر أو البصيرة " الخيال " ؛ ولأن الشاعر وُهب إحساسًا مرهفًا، نراه لا ينصرف عما وقعت عليه عينه مثل بقية الناس، بل ظل يتأمله، ويسبر أغواره، ويُلملم أطرافه، وقد ملك الحدث أو المشهد عليه كل مشاعره، وظل يمور في الشعور والوجدان منه، فإذا ما أخرج الشاعر ما في أعماقه في قالب شعري سُمي ذلك " تجربة شعرية "، وكانت قَبْلاً في الشعور المُسْتَكِن تُسَمَّى " تجربة شعورية ".

وهذا كله يحتاج ألفاظًا وتراكيب، تحمل معاني وأفكارًا، وصورًا وأخيلة، يُعبِّر بها عما يمور به وجدانه، استجابة لتلك التجربة.

وتنجح التجربة كلما توفر لها عنصر الصدق الفني الذي نقف من خلاله على مطابقة التصوير المقروء شعرًا لمشاعر الشاعر الدفينة، بحيث نشعر بالارتياح لما يقول، فنشاركه طربه، أو نبكي معه، حتى ولو كان يبالغ فيما يقول مبالغةً تزيد القول حلاوة، دون أن ينفر منها القارئ أو المتلقي.

وظني كبير في أن هذا هو المقياس الدقيق الذي نكشف به صدق عواطف الشاعر. وقد تكون التجربة ذاتية تتعلق بذات الشاعر، أو تكون عامة إذا تعلَّقت بأفراد المجتمع ؛ وقد تكون إنسانية إذا ارتبطت بمشكلة تشغل الإنسانية جمعاء، مثل التسلط، أو الظلم، أو غير ذلك... وإن كانت أحداثها قد وقعت على أرض الشاعر، وبذلك تخرج التجربة من نطاق الإقليمية إلى نطاق العالمية. وسنحاول - بإذن الله تعالى - الحديث عن عناصر التجربة عند أبي مسلم، لنتعرف عن قرب على مدى مطابقة التصوير المقروء شعرًا لمشاعر الشاعر الدفينة.

أولاً : السِّمات اللَّفظيَّة والتركيبيَّة.

إذا كانت المعاني والأفكار هي جوهر التخاطب الإنساني، ومادة التقارب بين الأفراد والشعوب، ووسيلة الالتقاء البشري على سُلَّم الحياة ؛ فإن الكلمات والأساليب هي وسيلة الاتصال، ومفتاح الانتقال إلى ما صنع العقل ونسج الخيال. وبقدر ما يكتنف الألفاظ من غموض أو وضوح، تكون القدرة على إيصال المشاعر وتبادل الأحاسيس ؛ ومعلوم أن الناس يختلفون اختلافًا كبيرًا في التعبير عن معانيهم وخواطرهم، لكن مناط الجودة في ذلك النتاج (ما كان مصرِّحًا عن المعنى ليسرع الفهم إلى تلقيه، وموجزًا ليخفف على اللفظ تعاطيه...)([1]).

والسؤال الآن : هل كانت ألفاظ شاعرنا، وطبيعته المعجمية من السهولة والوضوح، بحيث تُصرِّح عن معناها في غير عنت، وتقتحم الآذان بلا استئذان ؟!. أم إنها بالغت في الخيال، وأغرقت في الإيغال، وامتلأت بالغريب، فتعقدت منها التراكيب ؟؟.

بادئ ذي بدء، وللإجابة على هذا السؤال نود أن نشير إلى أن أبا مسلم شاعر ينتمي إلى القيم الإسلامية وأخلاقها، حيث تأثر بالإسلام وقيمه تأثرًا شديدًا ؛

([1]) زهر الآداب. للحصري. ١/ ١٣٩.

كما كان من المحافظين على نهج أجداده من الشعراء القُدماء . على ما سيأتي بإذن الله تعالى ..

ومن ثم استطاع أن يمزج بين التأثر بشعر التراث العربي، والتأثر بالاتجاه الإسلامي الرحب، مما ساعده على تكوين شخصية فنية مستقلة، دون سائر شعراء عصره، حيث كان يبني قصيدته على دُعامتين : -

الأولي : ▪ دُعامة لُغوية حشد فيها كمًّا عظيمًا من الألفاظ البدوية الناشئة عن نبت الصحراء وحيوانها.

الثانية : ▪ دُعامة شعرية فنية، حشد فيها كمًّا عظيمًا أيضًا من الصور الفنية التي تملك حس القارئ ووجدانه.

ومن ثم كانت له قوة في الألفاظ، ودقة في المعاني، مما أعطى صوره مزيدًا من الروعة والجمال.

١ - أهم الظواهر اللفظية

الناظر في ديوان أبي مسلم يجده قد عبَّر عن معانيه وأفكاره، بألفاظ قوية رصينة، يتفاوت فيها الغريب كثرة وقلة ؛ لأنه كان يتمسك بطبيعته البدوية تمسكًا شديدًا ؛ وفي الوقت نفسه تأثر بالقيم الإسلامية، وأخلاقها السمحة ؛ كما كان لهجرته إلى زنجبار، وشعوره الدائم بالغربة والحنين، بعض التأثيرات الفعَّالة في لغة شعره.

يشيع العبق القديم فوَّاحًا في جنبات ديوان أبي مسلم ؛ ويرجع في بعض جوانبه إلى الطبيعة البدوية، ونبت الصحراء وحيوانها. من ذلك قوله(١) : -

أسد فرائسه الخضارم في الوغى	**جرار كل كتيبة قمقامها**
طلاع كل ثنية هزازها	**قماع كل عظيمة مصدامها**
- - - - - - - - - -	- - - - - - - - - -
تخشى البوادر من جلال قهره	**نوب الصروف فما يشب ضرامها**

فهو هنا يصور شجاعة الممدوح وقوته في الوغى. وقد جاء بألفاظ مُعبِّرة عن هذا المعنى تتسم بالقوة والرصانة والمتانة، مثل : (الخضارم . الوغى . قمقامها .

(١) الديوان. ص ٤٥٩.

هزازها . البوادر . ضرامها). فهذه الألفاظ القوية المتينة، تلائم الطبيعة الصحراوية التي عشقها الشاعر.

ويسترسل الشاعر في هذا الاتجاه، بحيث تشيع في شعره ألفاظ الفروسية والحرب. حيث يقول([1]) : –

من للحوادث أن تكون جنوده	وتكون في كبد العُداة سهامها
لولا كفالة عزمه بسياسة الـ	ـدنيا كفاه عن الوغى إقدامهـا
لكن له سن الكمال فواضلاً	حتى على حد الظبي إنعامها
ولعت أياديه بإقراء السيـــو	ف دمًا وذاك على الكرام ذمامها
حقًّا إذا قرمت إلى لجم العدا	أن لا يظل مؤخرًا إكرامهـــا
ومطهمات كالرياح قواصف	قحل إلى دهم الحروب هيامها
ولطالما صلت على لباتهـا	زمر الحديد سهامها وحسامها
تصبو إلى الأهوال صبوة عاشق	عجبًا بشمطاء الحروب غرامها

فالشاعر يصور ممدوحه بمعاني الفروسية والحرب ؛ فتتوالى على لسانه الألفاظ العربية القوية المنبثقة عن عبق التراث، لتساعده على إبراز المعنى المراد. مثل : (العداة . الوغى . الإقدام . الظبي . الأنعام . السيوف . ذمامها . قرمت . لجم العدا . مطهمات . قواصف . زمر الحديد . سهامها وحسامها . شمطاء الحروب).

ويستمر الشاعر على هذه الوتيرة في مواضع كثيرة من شعره مما يعطينا إحساسًا قويًا بأننا نعيش في رحاب العبق الشعري القديم.

وقد يبلغ به هذا التوجه درجة تدفع بالغريب المهمل من الألفاظ إليه في بعض الأحيان. مثل قوله([2]) : –

واصلت الله أصليتا يحس به	سواعدًا شدها بغي وكفـران

وقوله([3]) :–

حتى تمخض نورًا لا يكـدره	خير وشر وأغيار وأغيـان

([1])نفســه. ص ٤٥٩.
([2]) الديوان. ص ٣٠٤.
([3]) نفســه. ص ٣٠٥.

وكان أبو مسلم إلى ذلك يحرص على استخدام بعض الألفاظ القريبة، التي تعطي إحساسًا بأنها عامية، مع كونها فصيحة، بهدف استثمار ظلالها الدلالية والإيحائية. مثل قوله([1]) : –

استنبط العلم وزك العملا ولا تعش بعزة سبهـــــلا

– – – – – – – – – – – – – – – – – –

جوهرة النفس إذا ضيَّعتها في لعب لم تلق منها بدلا

فقد استخدم الشاعر ألفاظ (سبهللا . لعب)، وهي من الألفاظ التي قد تبدو عامية، لكنها عربية فصيحة، اعتمد عليها الشاعر، ليقرب المعنى من مفهوم القارئ أو المتلقي، بدلالاتها الإيحائية.

ويحتل المعجم القرآني مكانة واضحة في روافد انتقاء اللفظة، ونسج التعبير عند الشاعر. مثل قوله([2]) : –

صبغة الله على نهضتكم إن من كان مع الله انتصر

وقوله([3]) : –

وما هو إلى سكرة الموت بغتة وذلك أمر كنت منه تحيد

وقوله أبيات مرتبة على أحرف السورتين : (كهيعص، و حمعسق)([4]) :–

بكاف الكمال وكون الكريـ ـم كفيل الكلاءة لي والكفايه
بهاء الهوية والهور منـــا وهيبته والهوى والهدايـــه
بياء اليقين وأنـــــــواره ويمن يمينك يا مشتكايـــه
بعين العلوم وأعيانهـــــا وعين العليم وعون العنايـــه
بصاد الصفاء بصيمودية بصدقك في مقتضى كل آيه
بحاء المحبة والحكمة والحكـ ـم والحمد منا وحجب الحمايـه

([1]) نفسه. ص ٤٥٧.
([2]) نفسه. ص ٣٥٦.
([3]) الديوان. ص ٣٩٧.
([4]) نفســه. ص ٢٣٨ .

بميم معارفك المُشرقـــــــا ت وأسرار مبدئها والنهايـــه
بعين أعنابها يا معيـــــن بعطفك للمعتني بالرعايـــــه
بسين السلام وسبحانـــــــه سريع العطاء سميع الشكايه
بقاف القوى بقهر القديـــــر بقيوم قلبي بقدر الوقايـــه
سألتك صل على المصطفى إلهي وسَهِّل ويَسِّر مُنايـــه

وقوله([1]) : –

تشعشع فيهم صبحه فانجلى المسا
فهم في ضياء منه والليل عسعسا
بآية طور صبحهم قد تنفســـــــا

ويكتظ الديوان بالألفاظ القرآنية، على ما سيأتي بالتفصيل في مبحث التضمين والاقتباس ـ بإذن الله تعالى ـ . وهذا يشير إلى الحضور القرآني لدى الشاعر، بحيث يُلبي حاجة التعبير الفني.

٢ ـ ظواهر تركيبية

لقد رُزِق شاعرنا قريحة فطرية صافية يستطيع بها التعبير الدقيق عما يطوف بخلده من معان وأفكار، فجاءت ألفاظه مُكوِّنة عبارات خالية تمامًا من التصنع أو التكلف، أو التعقيد.

ومع ذلك يلفتنا في ديوانه بعض الظواهر التركيبية في بنية البيت الواحد، أو في بنية المضمون العام للمعنى المراد، تكشف عن حِسٍّ فني فطري لدى الشاعر، يدعمه إمكانات لغوية ثرية، أعانته على توظيف الوسائل التعبيرية المختلفة، دون احتياج إلى التكلف أو التصنع، مما جعل شعره ميدانًا رحيبًا تتراءى فيه كثير من الأساليب البيانية الفعَّالة ؛ على ما سوف نستعرض في الصفحات التالية ـ بإذن الله تعالى ..

(أ) التَّرَادُف والتَّضـــاد.

([1])نفســه. ص ٥٣ .

برزت ظاهرة الثنائية في شعر أبي مسلم، لأن فكره يعود إلى النزعة التأملية التي تعتمد على مزج نوعين هامين من تلك الثنائية في بوتقة تصويرية واحدة ؛ وهما : –

١ ـ منهجية العطف والاقتران.

٢ ـ منهجية الموازنة بين الأشياء، والتقابل، أو التضاد فيها. فهناك (الدنيا والآخرة، والخير والشر، والرجل والمرأة، والثواب والعقاب).

فهذه الثنائيات هي التي قام عليها الكون والحياة في بنيتهما الأساسية.

والمتأمل في قصيدة "يا للرجال"([1]) ـ على سبيل المثال . يجد أن بنيتها الأساسية قامت على هذه الخاصية الفنية، حتى لتكاد تصبح ظاهرة. حيث يقول([2]) : –

انزل على عرصات كلُّها قدس	للحقِّ فيهنَّ أزهار وأفنـــــانُ
انزل على عذبات النور حيث حوت	أئمَّة الدين بطنان وظهـــرانُ
حيث الملائكة احتلَّت مشاهدهم	لها على الحِلِّ والتعريج إدمانُ
أرض مقدَّسة بُوركت وزكـــت	تنصب فيها من الأنوار معنانُ
ما طار طائرها لله محتسبًـــا	له جناحان إيقان وعرفـــــانُ
إلا وقام يمين الله ساعـــده	والفتح والنصر والتأييد أعوانُ
ميمونة بركات الله تنفحهـــا	واليمن يثمر علم وإيمـــــانُ
رست بها هضبة الإسلام من حقب	وإن قضت باستتار العدل أحيانُ
قديمة الذكر عاذ الدين عائذها	من يوم أصبح توحيد وقرآنُ
قامت بها قبَّة الإسلام شامخة	حتى تواضع بهرام وكيـــوانُ

--- الأبيات ---

فالشاعر يصور أرض عُمان،لا سيما مركز ولاية نَزْوَىالدِّيني، وما حباها الله به من ازدهار، وأمن وأمان، وقدسيَّة بين سائر المدن العُمانية، فجعل لها طائر يطير بجناحي اليقين والعرفان.

([1]) الديوان. ص ٢٩٩.
([2]) نفســه. ص ٣٠١.

وقد استخدم ظاهرة الثنائية أداة فنية توفر الموسيقى داخل بنية البيت، بهذا التلاحق والترادف الصوتي بين كلمتين تتشابهان عادة في إيقاعهما الموسيقي. فـ (بطنان، وظهران) على وزن " فَعْلان " ؛ و (إيقان، وعرفان) على وزن " فِعلان " ؛ و(الفتح، والنصر) على وزن " الفَعْلُ ".

وقد امتزجت الأبيات بنوعين من الثنائية : –

الأول : ثنائية مبنية على منهجية العطف والاقتران. مثل (أزهار، وأفنان)، (بوركت، وزكت)، (إيقان، وعرفان)، (وتوحيد، وقرآن)، (بهرام، وكيوان). وكلها ثنائيات معطوفة بعضها على بعض على سبيل الاقتران.

الثاني : ثنائية مبنية على منهجية التضاد في المعنى على سبيل التفاعل والتداعي. مثل (بطنان، وظهران)، (الحِل، والتعريج).

فأضفى ظلالاً بهيجة على اللوحة الفنية للقصيدة، وبُعدًا آخر عميقًا لمعاني القصيدة وإيحاءاتها. وكما يقول علماء البلاغة أن (استخدام الطباق والمقابلة لزيادة الإيضاح وتأكيد المعنى. والمعروف أن الطباق هو الجمع بين ضدين...)([1]). والضد يُظهر حُسنه الضد، كما يتضح من قول شاعرنا : –

يا برق حَرِّك همومي إن تكن سكنت فكل حظي تحريك وإسكـــان

فقد جاء التضاد في (حرِّك، سكنت) في الشطر الأول، بينما جاء في لفظتي (تحريك، وإسكان) في الشطر الثاني ؛ وذلك لإبراز المعنى المُراد وإيضاحه ؛ فهو يصور بُعدًا نفسيًا، وإيحاءات معنوية خاصة ؛ فهو يُعاني نفسيًا، ولا يقر له قرار من أثر غربته عن وطنه، وبُعده عن الأهل والأحباب. ولذلك جاء بلفظتي التضاد في الموقع المناسب للتعبير عن حالته النفسية تلك ؛ وليس على سبيل الحلية اللفظية التي لا معنى لها.

فالشاعر يُدرك أن أسلوب الثنائية من المقومات المؤثرة في الوجدان، على سبيل التقابل، بهدف التفاعل والتداعي.

لذلك لم يكن غريبًا أن يعمد الشاعر إلى المقارنة بين الشيء وضده، أو بين الشيء ومقابله، كما نلحظ ذلك في قوله([2]) : –

يا للرجال لقد ذلَّت حفيظتكـم إذا استطاعت على الآساد حملانُ

إن السيوف التي كانت لسالفكم ما ضمها معهم رمس وأكفـــانُ

([1]) علم البديع. د/ عبد العزيز عتيق. ص ٧٦. النهضة العربية - بيروت ١٩٨٧م.
([2]) الديوان. ص ٣٠٧.

مريضة هي في الأجفان أم مرضت	**قلوبكم؟ أم نأى عنهنَّ وجدانُ؟**
بئس السيوف إذا حلَّت عواتقكم	**وما بها لعتيق المجد أحـــزانُ**
لا تحجبوها إناثًا في مغامدها	**فإن تلك اليمانيات ذكـــــرانُ**

فالشاعر هنا يقابل بين (الآساد، والحملان)،وبين (السلف، والخلف)، وبين (الذكر، والأنثى)، وبين (السيوف عند الأجداد الفاتحين، وبينها عند الأحفاد الواهنين). بهدف بث الحِمية، والحث على الاستنهاض ؛ حيث مرضت سيوف الأحفاد في أجفانها، ونامت في أغمادها، حتى باتت . وهي لا تؤدي مهمتها الجهادية . إناثًا في مغامدها.

من هذا المنطلق نقرر أن الشاعر في استخدامه هذه الثنائيات لم يكن من قبيل الزخرف اللفظي، أو المحسنات البديعية التي يشغف بها بعض الشعراء على حساب المضمون ؛ بل كان يستخدمها في ثنايا البيت متراصة متماسكة، لها علاقة فنية وطيدة بالسابق من المعنى، واللاحق منه.

(ب) التكـــــرار.

كان التكرار اللفظي والمعنوي من أهم الظواهر الأسلوبية التي استخدمها أبو مسلم بشكل لافت في شعره. على أنه لا يلجأ إلى هذا الأسلوب تقليدًا لنمط القصيدة العمودية التقليدية، التي تحمل الاتجاهات نفسها، بقدر ما هو استجابة لدافع موضوعي، فرضه الواقع الذي يعيشه ؛ فالإحساس بالنهوض والانبعاث من أهم البواعث التي دفعته إلى حشد صور التكرار اللفظي والمعنوي التي تجسد تلك المشاعر. فهاهو ذا يلجأ إلى أسلوب التكرار اللفظي، بهدف الاستنهاض والتحفيز، مستثيرًا الحمية الإسلامية في بني قومه؛على ما في قوله([1]):

هبُّوا لأخذ المعالي من مراقدكم ... فليس يستدرك العلياء نومانُ
هبُّوا لداعي الهدى هبُّوا لعزَّتكم ... وكيف نومكم والخصم يقظـانُ
جدُّوا فديتكم في نصر دينكـــم ... فاليوم فيكم لنصر الدين إمكانُ
كتائب الله لا يحتلُّ بيضتكـــم ... خصم مساعيه في الإسلام ثعبانُ
كتائب الله ذودوا عن حياضكم ... كي لا يهدمُها بغي وكفـــرانُ
كتائب الله ما عيش الذليل لكم ... عيش، وفي منايا العزِّ نقصانُ
كتائب الله لم يعهد بكم خـــور ... وللجبال على الأزمات أقرانُ
كتائب الله حاموا عن حنيفتكم ... قد لوَّثتها خنازير وصُلبـــانُ
كتائب الله دين الله في طلـــق ... والمشرفيات في الإيمان طلقانُ
كتائب الله لم تُخلق نفوسكـــم ... لكي يسخِّرها ذلٌّ وأهـــــوانُ
كتائب الله أدعوكم إلى شـــرف ... عُقباه أن تصدق النيات رضوانُ
كتائب الله يوم الهول عيدكـم ... فما لكم لبغيض الله عُبـــدانُ

فالشاعر يبدأ بكلمة أو كلمتين، ثم يكررها في الأبيات، تصل أحيانًا إلى تسع مرات ؛ وهذا يراه بعض الدارسين تقليدًا وحشوًا ؛ ويراه البعض الآخر من سمات أسلوب الشاعر الذي يهدف إلى إرسال هزَّات متتالية تلفت انتباه الشعور المتشبع بالغفلة الراقدة. وقد استخدم الشاعر هذا الأسلوب كذلك في قصائد التسبيح، تعبيرًا

([1]) الديوان. ص ٣١١، ٣١٢.

عن استغراقه في هذه السبحات الوجدانية ؛ فنراه يكرر العبارة الأولى بأكملها ؛ أو معظم كلمات الشطر الأول من البيت، على امتداد القصيدة كلها ؛ تكرارًا يصل أحيانًا إلى أكثر من سبعين مرة. كما في قصيدة (هو الله جل جلاله) التي يقول فيها([1]) : –

هو الله بسم الله تسبيح فطرتي	هو الله إخلاصي وفي الله نزعتي
هو الله بسم الله ذاتي تجرَّدت	وهامت بمجلي النورعين حقيقتي
هو الله بسم الله ضاءت فاشرقت	بأنوار نور الله نفس هويتـــي
هو الله بسم الله في كل لحظة	بأسرار سر الجمع جمع تشتتي
هو الله بسم الله ذرات عالمي	خواتمها بدء كعالم ذرتـــــي
هو الله بسم الله هبت فشاهدت	بروق جلال من أنا الله غيبتي

--- الأبيات ---

فهذا التكرار يشيع في كل قصائد أبي مسلم، التي تدور حول الذكر والتسبيح والدعاء، (ولاشك أنَّ هذا التكرار أنسب إلى شعر السماع والترديد والتغني، منه إلى شعر القراءة الصامتة، ولعله ترديد يتجلَّى في حلقات الدعاء والابتهال والذكر، حيث تحتفظ هذه النغمة الثابتة بمرجع "موسيقي " يعود إلى الذاكر أو الداعي، ويستريح عنده الإنشاد، أو ينطلق منه، وينبغي أن لا ننسى ونحن نقيَّم هذا النمط من الصياغة من منظور القارئ المعاصر، أن أبا مسلم ينتمي إلى عصر المشافهة، ويكاد أن يُلامس عصر الطباعة والقراءة.....)([2]). وهكذا كان التكرار في هذا اللون الشعري ينهض غالبًا على أساس من تكرار صيغة من صيغ التسبيح، أو اسم من أسماء الله ، على نحو مطرد أو شبه مطرد.

من هذا المنطلق نقرر أن الشاعر حين استخدم التكرار كان واعيًا بمدلوله الفني والنفسي، وقدرته التبليغية كل الوعي ؛ فقد اختار أن يكون شعره رسالة إسلامية، يبث فيه القيم الأخلاقية، والتطلعات الوطنية، والمبادئ الإسلامية. وهذا يحتاج إلى نوع من الموسيقى الداخلية والخارجية عند الأداء، المنبثقة عن نوع من التكرار الممتزج بالتنويع في الأوزان الشعرية والقوافي ؛ فكان الشاعر يختار من

([1]) الديوان. ص ٥٨ وما بعدها.
([2]) مدخل إلى دراسة الأدب في عُمان. د/ أحمد درويش. ص ١٦٢.

الأوزان ما يساعد على الإنشاد. مثل بحر الرجز الذي نظم فيه أغلب هذا اللون الشعري. ويبدو أن حرصه على توفير هذا الجو الموسيقي هو الذي دفعه إلى مراعاة الموسيقى الخارجية، بتكرار حرف بداية البيت في خاتمته، مثل أن يبدأ القصيدة بحرف الهمزة، على أن تكون قافيتها كذلك. حيث يقول([1]) :-

إلهي لا سمك الأعلى العلاء ... له التسبيح مني والثنـــــاء

أقمت لعز وجهك ذل نفسي ... فافن النفس فيك لك البقاء

إليك يسوقها شوق ملـــح ... وأصوات الصفات لها حـداء

---- الأبيات ----

أو أن يبدأ البيت بحرف الباء، على أن تكون القافية كذلك. حيث يقول([2]) :-

بـاسمك سيدي تُجلي الكروب ... وذكرك تطمئن به القلوب

بِحَمْدِكَ سَبَّحَت روحي ونفسي ... وقلبي فيك منكسر قطيب

بثثت إليك أحزني وكربـــي ... وحالي عنك ربي لا تغيب

--- الأبيات ---

وهكذا يتقرر أن ظاهرة التكرار في شعر البهلاني موظَّفة توظيفًا فنيًا، يُغلن عن صدق الشاعر في تعبيره عمَّا يفعم به وجدانه، لا سيما في شعر الدُّعاء والابتهال، والتضرع إلى الله، والذِّكر والتسبيح.

وغنيٌّ عن البيان أن هذا اللون من الشعر يقوم على صيغ بعينها، يجتهد كل إنسان في تكرارها، والإكثار منها، على ما قرره الدكتور/أحمد درويش، في قوله([3]) : (.... تتفاوت درجة الوعي بهذا اللون الذي يدور في إطار الذِّكر والتسبيح، باستحضار الذهن، وتمثل الدلالة من شخص إلى آخر، وتأخذ هذه العبارات أبعادًا أعمق عند المخلصين من المتعبدين،أو المتصوفة، ومن نسميهم أهل الباطن. فالمتعبد الصادق يعيش هذه اللحظة بوجدانه، وعقله، ولسانه، حتى ليكاد يتجاوز حالة الوعي والشعور، إلى حالة من الاندماج الروحي، وسيطرة اللاشعور، حتى إننا قد نجبره بما كان منه لحظة الاندماج الصادق، فلا يتبيَّنه بوضوح، أو يقر بوعيه به.

([1]) الديوان. ص ٢٦١.
([2])نفســه. ص ٢٦٢.
([3]) مدخل إلى دراسة الأدب العُماني. د / أحمد درويش. ص ١٦٤ وما بعدها.

وأغلب الظن أن الشاعر كان يعيش مثل هذه اللحظات بصدق ؛ وفي أحيان أخرى يمارس شاعريته في هندسة أدائها، على نحو ما نرى في تتبعه لأسماء الله الحُسْنَى).

وهكذا لا ينتهي المتلقي من اصطحاب الشاعر في سمة التكرار الفنية، إلا وقد استشعر وثاقة الارتباط بخالقه، وأحس صفاء اللحظة التي نعم خلالها بالذكر والتسبيح . وكذلك صفاء التجربة، بكل خصائصها وسماتها.

**** **** ****

ثانيًا : الصورة الفنيَّـــة.

من استقراء شعر أبي مسلم نُدرك توجه الشاعر إلى التعبير المصوِّر، فقد أُوتي مقدرة خيالية تُتيح له البيان التصويري، حيث يتوسل بالصورة الفنية في إبراز مكنون نفسه ، ممزوجًا بما تفيض به مشاعره، في وحدة منسجمة، ليأتي بناء القصيدة نتيجة لذلك مرتديًا ثوبًا قشيبًا من الجمال الفني، الكمال البياني. ولقد برع أبو مسلم في دقة التصوير، وتناسق الصور الفنية، فكان فنانًا ماهرًا، يعرف كيف يرسم اللوحات الأدبية التي تُعَبِّر عن أحاسيسه وأفكاره. فالصورة الفنية في شعر الشاعر تنهض على دعائم البيان العربي، من تشبيه، واستعارة، وكناية، وإيحاء. كما تنهض خلفيتها على الألوان، والأصوات، والحركات المعنوية والحسيَّة. كما في قوله([1]) : –

تلك البوارق حاديهن مرنـــــان فما لطرفك يا ذا الشجو وسنان؟!

فقد صوَّرَ البروق بركب الحداة المُنشدون، فكان مبدعًا أيما إبداع، فيما يُسمَّى ببراعة الاستهلال، التي اعتمد فيها على مزج الصورة الصوتية بالصورة الحركية النابضة، ليتضح البُعد النفسي من خلال الأرق، الذي أصاب الشاعر، نتيجة للمُعاناة النفسية الناشئة عن البُعد عن الأحبَّة، والأوطان، والنأي عن الديار. فهو يبحث عن وسيلة لخرق هذه المُعاناة، والاقتراب من الأهل، والوطن ؛ فكان الخيال الشعري النابض بالحياة، حافزًا لرسم هذه الصورة المتحركة بحركة البروق، التي باتت ركبًا متحركًا كذلك، يسوقه حاد يُغني بصوت كله رنين ؛ والبرق يتبعه الرَّعد، فإذا أرجأ

([1]) الديوان. ص ٢٩٩.

الكون تهتز، ويصبح الجو ميدانًا فسيحًا لجيوش البروق والرعود، المتمثلة في الأمطار الغزيرة، التي لا تلبث أن تُداهم الأرض، فتغمرها، وتغطيها بالسهول والأوعار.

فلقد عمد الشاعر إلى أن يفاجئ مُتلقيه بصورة صوتية متحركة، تشع قوة، وتمتلئ حيوية، فتتحرك حواسهم ونفوسهم، بالرغم عنهم، للمتابعة والاستمرار، ليتمكن هو من نقلهم إلى صورة أُخرى.

كما نلمح البُعد النفسي، وإيحاءاته المعنوية في قوله([1]) :-

إن هيَّجَ البرق ذا شجو فقد سهرت عيني وشبَّت لشجو النفس نيران

إن صورة البرق وما يُسببه من أمطار، أثارت أشجان الشاعر، فأشعلت فيها نيران الشوق والحنين للأحبَّة والأوطان.

ولا شك في أن الشاعر انتقى الصورة الملائمة لمعاناته النفسية، المُعَبِّرة عن لظى الحنين المضطرم في نفسه، والذي تمخض عن سهر دائم، دون أن يُغْمَض له جفن.

ويسترسل الشاعر في تصوير معاناته النفسية الناشئة عن غربته، وبُعده عن ديار الأهل والأحبَّة بقوله([2]) :-

معاهد شط البُعد بيني وبينها وحل بقلبي برحها المتقادم

تزاحم في روعي لها شوق والهٍ وصبر،وآن الصبر أن لا يزاحم

إذا لاح برق سابقته مدامعي وليت انطفاء البرق للغرب عاصم

لئن خانني دهري بشحط معاهدي فقلبي برغم الشحط فيهن هائم

وإن هيام القلب فيها وقد تنأت وسائل في شرع الهوى ولوازم

فيا فؤادي ما التباريح والجوى فعلن إذا ازدادت عليه اللوائم

على أن ذكر النفس عهداً ومعهداً أمضُّ بها مما تمج الأراقم

فالأبيات لوحة رسمها الشاعر تنبض بالحيوية والحياة، تعكس الحركة الداخلية في نفسه، مع توضيح الجزئيات المتعلِّقة بحركة البرق في السماء، وما يتبعها من

([1]) الديوان. ص ٢٩٩.
([2])نفسه. ص ٣١٦.

انهمار المطر، فتسبقه مآقي الشاعر لتذرف الدموع حزنًا على اغترابه عن معاهده، تعبيرًا عن هيامه بالديار وساكنيها، لأن ذكر العهد الجميل في المعهد الجميل، بعد نأي وانقطاع يُخلِّف وراءه ألمًا وأسًى أمض مما تمجه الأفاعي من سموم.

وهكذا نجح الشاعر منذ البداية، في حشد كل العناصر الفنية اللازمة لإنجاح رؤيته الفنية، من جزالة في الأسلوب، وقوة المعنى، وطول نفس، من غير ضعف أو تقصير. إذ لجأ إلى توظيف كل الجزئيات الفنية توظيفًا دقيقًا، ليرسم لوحة فنية، تعكس الحركة الثائرة في نفسه.

فالشاعر يعتمد على تجسيم المعاني المجرَّدة وتشخيصها، حتى يضمن اختراقها للحواس والنفوس ؛ وقد قدَّم تلك المعاني في كثير من مضامينه الفنية ؛ منها على سبيل المثال لا الحصر، مضمون "العلم"، ودوره في الحياة الإنسانية . عامة . وحياة الإنسان المسلم . خاصة .

ويقدم أبو مسلم أدلة محسوسة أخرى، إمعانًا في تقريب المعاني المجرَّدة إلى الأفهام. فالحياة طريق لها بداية، ولها نهاية، ومن المحال أن يجرؤ المرء على السير على هدى في هذه الطريق دون علم يوجهه ويهديه، فإذا فقد الإنسان العلم ضلَّ وغوى.

وهكذا قدَّم أبو مسلم صورة حيَّة للعلم، تتسم بالعمق والشمول، والفهم الأصيل، الذي يتخذ الدين الإسلامي أساسًا لتغيير الظاهر، والوقوف عند النَّواهي، والحث على تطبيق الأوامر ؛ من خلال تقريب المعنى المجرَّد في قالب محسوس، يُعَبِّر عن رؤية الشاعر الفنية.

من هذا المنطلق تتسع دائرة الصورة الفنية عند الشاعر، لرسم لوحة عامة، تتشكل من جزئيات عديدة يتحقق لها قدر من التداخل والانسجام، فتكون صورة كُليَّة ذات دور مهم في تقديم جانب من جوانب الرؤية، أو الإسهام بنصيب في تحقيق شاعرية الشاعر.

فالشاعر حينما أراد تصوير عدم رضاه عن واقع أُمَّته، رَدَّ السبب في ذلك إلى أن معاصريه ليسوا خلفًا جيدًا لأسلافهم، مع أن أدوات التفوق، وسُبل الإباء التي كانت مُتاحة لأسلافهم ماثلة في أيديهم، ولكن في حال غير تلك الحال. على ما في قوله([1]) :-

([1]) الديوان. ص ٣٠٧.

إن السيوف التي كانت لسالفكم ما ضمها معهم رمس وأكفانُ

مريضة هي في الأجفان أم مرضت قلوبكم أم نأى عنهن وجــدانُ

بئس السيوف إذا حلَّت عواتقكم وما بها لعتيق المجد أحــزانُ

لا تحجبوها إناثًا في مغامدها فإن تلك اليمانيات ذكـــــرانُ

فالشاعر هنا يتدرج في رسم لوحته الفنية في تسلسل منطقي، يوحي بفهم واع لأبعاد أجزاء الصورة. ففي البداية الإخبارية عبَّر عن روح السخرية المشوبة بالتأنيب. ثم انتقل بهدوء إلى الأسلوب الاستفهامي العميق لمعنى اللوم . وهو معنى معنوي مجرد . يُصَوِّر فيه السيوف بالمرض،الذي ترتد دلالته إلى قلوب حاملي هذه السيوف.

ثم انتقل مرة أخرى إلى تصوير الموقف النفسي المُستاء، الذي يشكل بُعدًا مباشرًا من أبعاد رؤية الشاعر تجاه هذا الموقف من مُعاصريه، وأبناء أُمَّته. ثم يُبَيِّن الدور المنوط بهذه السيوف، في صورة حسيَّة، بأنها ذُكران لا إناث ؛ فالإناث . في نظره . هي المنوط بالتستر والحجاب ؛ أما الذُّكران يُناط بهم القوة والمواجهة، وكأنه اتهام صريح لحملة هذه السيوف بأنهم هم الذين تحولوا من ذُكران إلى إناث. ويعمد الشاعر دائمًا إلى توضيح معالم رؤيته الخاصة، وإبراز موقفه العقلي والديني من الحياة الدُّنيا، ووضعها موضعها الحقيقي من الحياة الآخرة، من خلال منظور عقلي وديني ناضج، في صورة شعرية تعتمد على عكس الحركة الدَّاخلية في نفس الشاعر.

ثم يُدعم الشاعر توضيح هذا المعنى المعنوي المُجَرَّد بإدخال عنصر التَّشْخيص المحسوس على الصورة الفنية، بتجاوز حدود القول إلى مجال الحركة، فالدُّنيا تتخاءل حُسْنًا . بدلالة التمويه والخداع، وإيهام الحُسن . وجوهر الحال أنها شوهاء ظاهرًا، غادرة باطنًا ؛ ينبغي على الإنسان المسلم إدراك ذلك بوعي ونضوج ؛ ولكن المأساة أن المسلم "بها مُضْني الفؤاد عميد".

ثم يُكمل الشاعر صورته بقوله :-

ولو نُلْت منها طائلاً كان آفة تُداجي بها مغرورها وتكيـــد

تُدانيك حتى تؤنس الصدق والصفا وما الشأن إلا صائد ومصيد
ولو صدقت فالصدق في طي كذبها إذا عاهدت بالوعد فهو وعيد

فالشاعر يقيم رؤيته الذاتية للدنيا، على أبعاد تستمد دعائمها من البصر العقلي، والوعي الديني ؛ لذلك فهو يُكمل أجزاء الصورة التي توضح رؤيته في الحياة الدنيا، فثمة ظاهر وباطن، وثمة إدراك ظاهري ؛ وما ينبغي أن يُدرك من الأعماق المستكنة خلف ذلك الظاهر، مما يمكن أن يُشكل نقيضًا.

وقد تأتي الصورة جزئية سريعة، تعتمد على ضرب من العدول عن العلاقات المألوفة المتوقعة، بين أدوات التشكيل اللغوي، إلى علاقات أخرى أكثر إثارة وبكارة..... فتتمثل في نوع من أنواع الاستعارة،أو المجاز العام، القائم على تقديم المعنى المجرد في صورة حسيَّة متحركة. من ذلك قوله في تصوير صبره وقدرته على تحمل الفواجع([1]) :-

عهودي بصبري يقضم الصخر نابه فقد نسخت تلك العهود عهود

ومن ذلك أيضًا تصوير الالتزام الديني الذي ينعم به صاحبه([2]) :-

مقيدون بحكم الله حكمتهم وهمهم حيثما كان الهدى كانوا

وهكذا تمكن أبو مسلم من استغلال أدوات التصوير الفني في تقديم رؤيته الفكرية والوجدانية، في قالب شعري متعدد الجوانب، برزت من خلاله قدرته على توظيف عنصر التصوير في خدمة تجربته الفنية.

ثالثًا : التضمين والاقتباس.

التأثر بالقرآن الكريم

وتوجه أبي مسلم الإسلامي لم يقف عند حدود المضمون . فكر، ومعاني، ومشاعر، وأخيلة . على ما قدمنا ؛ ولكنه تجاوز ذلك كله ليشمل تأثره بالقرآن الكريم،

([1]) الديوان. ص ٣٦٩.
([2])نفسه. ص ٣٩٦. وراجع قراءات في فكر البهلاني : لجنة من المنتدى الأدبي. مبحث "في بعض الجوانب الفنية لشعر البهلاني". بتصرف.

في ألفاظه وصيغه، حيث أبى إلا أن يستغل حفظه آيات الكتاب الكريم، في تدبيج عباراته الشعرية، بل إنها كانت تتوارد على لسانه من غير قصد في كثير من الأحيان، في هيئات مختلفة، أطلق عليها البلاغيون والنقاد، اسم التضمين تارة، والاقتباس تارة أخرى، والتأثر والتأثير ثالثة..... والذي يعنينا من ذلك كله، أن شعره يأتي محمَّلاً بعبق القرآن الكريم ؛ إذ القرآن الكريم يمثل أصلاً بارزًا في ثقافته ومحفوظاته ؛ على ما صرَّح به في قوله([1]) : –

لو لم يكن غير إعجاز البلاغة في الـ ـذكر الحكيم لطوع الجنِّ والبَشرِ
أتى وللبلغاء اللسن عارضة فصكَّ ثَغْرَ بيان القوم بالحَجرِ
واستيقنوا أنَّ خلقًا لا يجئ به وأنه خارج عن طاقة الفطـرِ

والمسلم الحقيقي في نظر أبي مسلم هو الذي يتخذ من كتاب الله أنيسًا، ومن هداه رفيقًا. حيث يقول([2]) : –

تراه متى ما الليل عمَّد بيته عمودًا على محرابه وهو راكعُ
يشعشع بالقرآن أنوار قلبه فعنهنَّ شقت للعيون المدارعُ
يرجع في الديجور رنَّة ثاكل نجيبًا كما ناح الحمام السواجعُ
يناوحه همَّان همٌّ مخافـة وهمٌّ رجاء، والبرايا هواجـعُ

وتأثير القرآن الكريم بألفاظه وصيغه في شعر أبي مسلم، يبدو في مظاهر شتى، من أهمها : –

المظهر الأول : ▪

تضمين آية من الآيات القرآنية، بحيث تصبح شطرًا كاملاً، أو بعضًا منه. على ما جاء في قوله([3]) : –

وإني لغفار لمن تاب، ردني إليك فلا تردّ متابي بخيبـة

فقد ضمَّن الشاعر هنا الآية الكريمة([4]) : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾.

([1]) الديوان. ص ٢٧٩.
([2]) نفسه. ص ٣٣٣، ٣٣٤.
([3])نفسه. ص ٧٠.
([4]) سورة طه. الآية ٨٢.

وفي قوله([1]) : –

إلهي تؤتي الملك والعز من تشا وهذا اختصاص سره للألوهيَّةِ

تضمين للآية الكريمة([2]) : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وقوله داعيًا الله على العدو الكافر([3]) : –

إلهي لا تجعل سبيلاً لكافـــرٍ على مُسلمٍ مستمسكٍ بالشريعةِ

– – – – – – – – – – – – – – – – – –

إلهي ما هذا المريد بمعجـــزٍ وأنت غيور شاهد صدق دعوتي

استدعاء للآية الكريمة([4]) : ﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلَۢا ﴿١٤١﴾ ﴾. أو استلهام من الآية الكريمة([5]) :﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

وقوله أيضًا([6]) :–

وأين فرار العبد من مُلك ربِّـه وما عزبت عنه حقيقـــــة ذرة

فيه استلهام من الآية الكريمة([7]) : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ ﴾.

وقوله كذلك([8]) : –

برتبة الحق رفيع الدرجـــات ذي العرش ملقي الروح باعث الرفات

بما على وجوده من بينـــات بحق ما لذاتـه من الثبـــــات

([1]) الديوان. ص ٧٥.
([2]) سورة آل عمران. الآية ٢٦.
([3]) الديوان. ص ٧٧.
([4]) سورة النساء. الآية ١٤١.
([5]) سورة النور. الآية ٥٧.
([6]) الديوان. ص ٧٩.
([7]) سورة سبأ . الآية ٣.
([8]) الديوان. ص ١٧٦.

يبارك الباقي البقاء المستمر

استدعاء لقوله تعالى(١) : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾.

ويقول(٢) :-

معشر إحسانك ربي مزدلـــف ... وفيك لي من كل فائت خلـــف
قد انتهيت عن جميع المقترف ... إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

سبحانك اللهم وعدك الأبر

ففي الشطر الرابع اقتباس من الآية الكريمة(٣) : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ويقول أبو مسلم في موضع آخر(٤) :-

مهاد رأفته عدن ونحن بهـــا ... في مقعد الصدق نحيا عند مقتدر
طوبى لنا قد جعلنا أُمَّة وسطا ... خيرًا شهودا لمولانا على البشر
فرُّوا إلى الله واستبقوا بجهدهم ... بقيَّة الله ذُخرًا خير مدخـــر

البيت الأول استدعاء للآية الكريمة(٥) : ﴿ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾ ﴾.

والبيت الثاني من قوله تعالى(٦) : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

أما البيت الثالث فهو تضمين من الآية الكريمة (٧) : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ ﴾.

ويقول الشاعر كذلك(٨) :-

---

(١) سورة غافر. الآية ١٥.
(٢) الديوان. ص ١٨٩.
(٣) سورة الأنفال. الآية ٢٩.
(٤) الديوان. ص ٢٨١.
(٥) سورة القمر. الآية ٥٥.
(٦) سورة البقرة. الآية ١٤٣.
(٧) سورة الذاريات. الآية ٥٠.
(٨) الديوان. ص ٣٠٤، ٣٠٦، ٣١٥.

يختص من يشاء بالرحمى ويصرفها — عمن شاء وفي الحكمين رحمن

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

يا للرجال أقيموا وزن قسطكم — فما لكم قبل وزن القسط ميزان

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

إن تنصروا الله ينصركم فلا تهنوا — فالكفر في المقت والإسلام رضوان

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

ففي البيت الأول اقتباسٌ من الآية الكريمة(١) : ﴿ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

المظهر الثاني : ▪

تضمين البنية الشعرية كلمة قرآنية، أو جملة، أو إشارة، أو شئ من هذا القبيل. كما نرى في قوله(٢) : -

دعاني قل ادعوا الله والفقر مطلقًا — وإنك يا الله أهل لدعوتي

فهذا البيت فيه تأثر واضح بقوله تعالى(٣) : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ ﴿١١٠﴾ ﴾.

ويقول الشاعر داعيًا على أعداء الدين(٤) : -

مكني اللهم في خير مقام — في الدين والدنيا، وبلِّغني المرام

ورد أحزاب أعاديك الطغام — بفيظهم عنا وحدهم بانتقام

إني مغلوب إلهي فانتصر

ليسوا بمعجزين في الأرض وما — كان لهم من دون ربي أوليا

ضاعف لهم من العذاب والشقا — معجلاً ما عجزت عنه القوى

حتى يكونوا كهشيم المحتضر

وهبتني الذكر كما أجريته — هب لي به نجاة من أنجيته

---

(١) سورة آل عمران. الآية ٧٤.
(٢) الديوان. ص ٦٣.
(٣) سورة الإسراء. الآية ١١٠.
(٤) الديوان. ص ١٨٩ : ١٩١.

ووقني النـار كمن وقيتـــــه مَنْ تُدْخل النـار فقد أخزيتـه

وما لظالم عليك منتصر

سمعت مَنْ نادى للإيمان وقد أمنت لا أعدل بالله أحـــد

بحق الإيمان بغفرانك جـــد معاذك اللهم من خزي الأبـد

توفني برا

وأنت خير بر

وآتنا وعداً على رسلك تـــم لا تخزنا يوم القيامة في الأمم

لا تخلف الميعاد ما قلت انحتم ولا تضيع عملاً فيك ولـــم

تُحرم إجابة الدُّعا من افتقر

ففي الشطر الخامس من المقطع الأول تأثر واضح بالآية الكريمة(١) :

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾.

وفي الشطر الخامس من المقطع الثاني استحضار للآية الكريمة(٢) :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾.

أما بقية النص فهو استدعاء في اللفظ والمعنى من قوله تعالى(٣) : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ .

ويقول الشاعر كذلك(٤) :-

جدوا إلى الباقيات الصالحات فلم يفتهم في التقى سر وإعـــلان

- -

(١) سورة القمر. الآية ١٠.
(٢) سورة القمر. الآية ٣١.
(٣) سورة آل عمران. الآية : ١٩١ : ١٩٣.
(٤) الديوان. ص ٣٠٢، ٣٠٣.

مضوا وآثارهم نور وذكرهـــــمُ رحمى ومضجعهم روح وريحان

ففي البيت الأول تأثر في اللفظ والمعنى بالآية الكريمة([1]) :
﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ ﴾
وفي البيت الثاني تأثر بقوله تعالى([2]) : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ ﴾.

يبدو أن الشاعر في هذا المجال يحتذي بطائفة من الشعراء العرب السابقين؛ حيث لوحظت هذه السمة في شعر الشراة قديمًا ؛ لأنهم (يصدرون في كل أفعالهم عن عقيدة إسلامية خالصة من الشوائب، خالية من الفلسفات والتأويلات والتعقيدات ؛ فكر واضح، وعقيدة ظاهرة، تنفجر من ألسنتهم دونما عناء أو تكلُّف؛ وكما أنهم يصدرون عن مثل هذه العقيدة، فهم يُعبِّرون عن ذلك بمثل الصفاء والصدق السابقي الذكر ؛ وبلغة علقت فيها عبارات القرآن الكريم، والحديث الشريف، وتمثلت فيها روح الإسلام وصفاؤه، ونقاؤه ؛ وسبب ذلك كله أن القرآن الكريم أكبر مصدر لثقافتهم، . إن لم نقل : هو مصدرها الوحيد . فهم حفظة القرآن، والمتصلون به ؛ ليس لديهم كتب أخرى، ولا ثقافات أخرى تُلون شعرهم، فهم مدينون له بدينهم أولاً، وبلغتهم وشعرهم ثانيًا...)([3]).

على أن الدارس لا يخطئ هذه الظاهرة في شعر كثير من الشعراء المسلمين الذين احتذوا نهج الشراة،فالشعراء الملتزمون بعقيدتهم الإسلامية، والمتمسكون بقيم الإسلام السمحة، يتميز شعرهم بهذه اللغة، التي تنهل من المعين القرآني، تعبيرًا وتصويرًا، وإيقاعًا.

* * * * * * * * * * * *

قائمة المصادر والمراجـــع.

١ . الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب. . دار المعارف . بدون تاريخ ..
٢ . الآداب العربية في القرن التاسع عشر : لويس شايخو . بيروت

([1]) سورة الكهف. الآية ٤٦.
([2]) سورة الواقعة. الآية ٨٨، ٨٩.
([3]) قراءة جديدة في مواقف الخوارج وفكرهم وأدبهم. د/ أحمد سليمان معـــــروف. ص ٣١٥. دار طلاس . دمشق . سوريا. ١٩٨٨م

١٩٢٤م . الجزء الثاني.
٣ . أدب الفقهاء : د / عبد الله كنون. الكتاب اللبناني . بيروت . لبنان . ١٤٠٤هـ . ١٩٨٤م.
٤ . البردة : للإمام البصيري : شرح الشيخ / إبراهيم الباجوري. ضبطها وعلق عليها الشيخ / عبد الرحمن حسن محمود . مكتبة الآداب . القاهرة .
٥ . تاريخ آداب اللغة العربية : جورجي زيدان. طبعة الهلال . الجزء الرابع . بدون تاريخ .
٦ . تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : د / محمد رضوان الداية . مؤسسة الرسالة . ط : الثانية . ١٤٠١هـ . ١٩٨١م.
٧ . التصوف الإسلامي وأثره في الأدب والأخلاق : د/ زكي مبارك . ط : القاهرة . بدون تاريخ ..
٨ . تطور الأدب الحديث في مصر : د/ أحمد هيكل . ط : دار المعارف . بمصر . بدون تاريخ.
٩ . خصائص الأسلوب في الشوقيات : د/ محمد الهادي الطرابلسي . منشورات الجامعة التونسية . الفلسفة والآداب . السلسلة السادسة ١٩٨١م.
١٠ . ديوان أبي مسلم " شاعر زمانه وفريد أوانه " : حققه ودققه / عبد الرحمن الخزندار . وعُني بطبعه ونشره / صالح بن عيسى الحارثي. ط : دار المختار . ١٤٠٦هـ . ١٩٨٦م.
١١ . ديوان عبد الجبار حمديس : صححه وقدم له : د / إحسان عباس . دار صادر . بيروت . ١٩٦٠م.
١٢ . ديوان الفرزدق. دار صادر . بيروت . ١٣٣٦هـ . ١٩٦٦م.
١٣ . الذيل والتكملة : لابن عبد ربه المراكشي : تحقيق : د/إحسان عباس . بقية السفر الرابع . بدون تاريخ .
١٤ . زهر الآداب : لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري . عارضه وشرحه ووضع فهارسه / علي محمد البجاوي. الجزء الأول . دار الفكر العربي . ١٩٧٠م.

١٥ . الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه : د / يحيى الجبوري . مؤسسة الرسالة. ط : الرابعة . بيروت . ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
١٦ . عصر الدول والإمارات " الأندلس" : د/ شوقي ضيف. . دار المعارف . بدون تاريخ .
١٧ . علم البديع : د / عبد العزيز عتيق . النهضة العربية . بيروت ١٩٨٧م.
١٨ . فعاليات ومناشط المنتدى الأدبي : حصاد أنشطة المنتدى لعام ١٩٩٢/٩١م. نشر وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عُمان. إصدار يونيو ١٩٩١م.
١٩ . الفن والأدب : د / ميشال عاصي. مؤسسة نوفل. ط : الثالثة . بيروت . ١٩٨٠م.
٢٠ . قراءة جديدة في مواقف الخوارج وفكرهم وأدبهم : د/أحمد سليمان معروف.دار طلاس . دمشق . سوريا .١٩٨٨م.
٢١ . قراءات في فكر البهلاني الرواحي : لجنة من المنتدى الأدبي . طبع وزارة التراث القومي والثقافة، بسلطنة عُمان. ط : الأولى ١٤١٨هـ . ١٩٩٨م.
٢٢ . لسان العرب : لابن منظور.
٢٣ . محمود سامي البارودي : د / علي الحديدي . أعلام العرب . الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢٤ . المدائح النبوية في الأدب العربي : د/زكي مبارك. منشورات المكتبة العصرية . بيروت . لبنان . ط : الأولى ١٩٢٥م.
٢٥ . مدخل إلى دراسة الأدب في عُمان : د / أحمد درويش. دار الأسرة. ١٩٩٢م.
٢٦ . المصباح المنير : للفيومي.
٢٧ . المعجم الوسيط : لجنة من مجمع اللغة العربية.
٢٨ . ملامح الشعر الأندلسي : د / عمر الدقاق . دار الشروق . بيروت . ١٩٧٣م.
٢٩ . نظرة جديدة إلى عالم التراث : د / محمد عمارة . دار قتيبة . ط

: الثانية. ١٩٨٨م.

٣٠ . نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب : لأديب المغرب وحافظه الشيخ / أحمد بن محمد المقَّرِيِّ التلمساني. حققه / محمد محي الدين عبد الحميد. . الجزء السادس . بدون تاريخ ..

٣١ . النواميس الرحمانية : الشيخ/سعيد بن خلفان الخروصي. ط : حجرية . عَمَّان ..

****

المخطوطات

- ديوان الشيخ / سعيد بن خلفان الخليلي : جمع / محمد بن عبد الله الكندي. مخطوطة بوزارة التراث القومي والثقافة، بسلطنة عُمان. سنة ١٣١٤هـ.

**** **** ****